Bahā' al-Dīn Zuhayr ibn Muḥammad

البهاء زهير

[Bahā' Zuhayr]

بحث بقلم

مصطفى عبد الرازق

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٨ هـ — ١٩٣٠ م

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

عرفت شعر البهاء زهير إذ أنا صبي أقرأ على والدى - يرحمه الله - شيئا من كتب الأدب فى بعض الليالى . وقد أحببت شعر البهاء زهير مذ عرفته .

كان يتأتى لعقلى الناشئ أن يستشف معانيه من ثنايا ألفاظه اللطيفة وتراكيبه ، على حين تقوم الألفاظ والتراكيب حجابا دون المعانى كثيفا فى الشعر أحيانا وفى النثر . وكان موقع وزنه الموسيقى ونَغَمه يستثير فى نفسى أريحية وطربا ، حتى لتأثر بذلك ذوقى ، فهو يهفو فى البيان الى نوع من الأنغام والوزن .

ثم درست بعد ذلك سيرة البهاء زهير فيما كتب الكاتبون عنه وفيما حفِظت لنا الأيام من آثاره ، فتجلى لى من امتياز الرجل وتفوّقه ما ملأنى حبا له وتقديرا .

البهاء زهير مثال من مُثُل الخلق العظيم : يجمع الى حب الخير وفضيلة العفو قوةَ الشخصية وشرفَ النفس وعزةَ الإباء . وتلك صفات لا تجتمع إلا لأهل الفِطَر الفائقة ، خصوصا فى عصر كعصر البهاء زهير ولمن كان فى مثل منصبه .

كان البهاء زهير صديقا للشاعر المشهور جمال الدين المصرى يحيى بن مطروح الذى وُلد بأسيوط سنة ٥٩٢ ﻫ ، ثم أقام بقوص زمنا . وفى قوص تعارف البهاء زهير وابن مطروح ، وعاشا كالأخوين أيام الصبا ، ثم اتصلا معًا بخدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب من قبل أن يتولى الملك فى حياة أبيه الملك الكامل ، واستمرا فى خدمته بعد أن صار ملكا .

أما ابن مطروح فكان فى صورة وزير لدمشق ، وحسنت حاله وارتفعت منزلته .

قال ابن خلكان : « وفى سنة ٦٤٦ عزل ابن مطروح عن ولاية دمشق ... ... ثم عاد الملك بعسكره الى الديار المصرية وابن مطروح فى الخدمة والملك الصالح متغير عليه متنكر له ، لأمور نَقَمها عليه . وخيّم الملك الصالح عسكره على المنصورة وابن مطروح مواظب على الخدمة مع الإعراض عنه . ولما مات الملك الصالح وصل ابن مطروح الى مصر وأقام بها فى داره الى أن مات سنة ٦٤٩ » .

أما البهاء زهير فقد بلغ رتبةً تزاحم الوزارةَ جاهَها أو تزيد ، وهى رتبة الرياسة لديوان الإنشاء . وقد تنكّر له الملك الصالح أيضا فى أواخر أيامه وعزله ، فى حديث نرويه مفصلا بعد ، فأبى للبهاء زهير شرف نفسه أن يتنصل من ذنب لم تكن كل تَبِعته عليه ،

وأبى له شممه أن يقيم فى الخدمة مع الإعراض عنه، فرحل من فوره الى داره ولزمها فقيرا معدما حتى مات .

واذا كان البهاء زهير عظيما فى خلقه، كما رأيت ، فهو عظيم أيضا بمقامه فى تاريخ الأدب العربى .

عاش البهاء زهير فى القسم الأخير من العصر العباسى، وكان الأدب العربى فى هذا الدور قد جاوز المدى فى التنميق والعناية بالمحسّنات البديعية والسجع والإغراب اللفظى .

وأشهر أئمة الإنشاء فى ذلك العصر رجلان : أحدهما القاضى الفاضل محيي الدين، أو مجير الدين، أبو على عبد الرحيم البيسانى ثم العسقلانى ثم المصرى ، وزير صلاح الدين وصاحب ديوان الإنشاء لعهده المتوفّى سنة ٥٩٦ ،

وثانيهما العماد الكاتب الوزير أبو عبد الله محمد بن أحمد بن حامد الأصفهانى المتوفى سنة ٥٩٧

ويلقب القاضى الفاضل بشيخ البلاغة، ويلقب العماد الكاتب بعمدة المنشئين .

وقد أدخل العماد أساليب الترسّل بما فيها من سجع وجناس واقتباس واستعارات وكنايات ، فى المؤلفات العلمية ، فكتب فى التاريخ كتبا على هذا الطراز : مثل مؤلفه المعروف بالفيح القسى فى الفتح القدسى .

أما القاضى الفاضـل فله فى كتابة الإنشـاء طريقـة تعرف بالطريقة الفاضلية، سار على نهجها أهـل عصره ومن جاء بعـد عصره ، وفشت فى الأدب العربى . وقد سنّ سننا فيما تصدّر به الرسائل والتواقيع وما تختم ، وفى أساليب الدعاء وغير الدعاء .

وتمتاز الطريقة الفاضلية بالإطناب وكثرة الاقتباس والتضمين والمطابقة والتورية والمجاز مع الإسراف فى الجناس وما اليـه من المحسّنات اللفظية ومع الميل الى المفردات الغريبة والتراكيب الفخمة .

عُيّن البهاء زهير رئيسا لديوان الإنشاء فى الدولة الأيوبيـة ، فحل محلا كان القاضى الفاضل صاحبه من قبل، وتولاه بعـده تلميذان من أتباع مذهبه .

جاء البهاء زهير والطريقة الفاضلية فى عنفوان مجدها، فابتدع هو فى الشعر والإنشاء نمطا جديدا خرج به عن التقاليد المرسومة فى صور المخاطبات وفى الأساليب : فهو موجز لا يحب الإطناب، وهو مقتصد فى زينة اللفظ، وهو نزّاع الى الوضوح والبساطة فلا يرضى كثرة المجاز والكناية ، وهو عدوّ للجمود على نُظُم فى البيـان تقتل مواهب الإبداع والتفنن .

ثم هو لا يريد أن يستبدل الناسُ بكلامهم العادىّ كلامَ الجاهلية الأولى اذا نظموا الشعر أو كتبوا، وانما يريد أن يصحح الشعراءُ والكتّاب أساليبهم على مقتضى القواعد العربيـة ، حتى لا تنقطع

الصلة بين ماضيهم وحاضرهم ، من غير أن يجنى ذلك على سهولة التفاهم ولا على حركة اللغة ونموها وحياتها .

هذا المذهب الجديد فى إصلاح الأدب العربى لم يلق فى ذلك العصر ما يمدّه ويقويه ، ولم يكن البهاء زهير بفطرته السمحة وخلقه الوديع رجلَ كِفاح يجاهد متحمسا فى سبيل دعوة لمذهب جديد .

لم يرق لكثير من الأذواق التى أفسدها التقليد هذا المذهب الذى يفك عنها قيودها ويخلصها من التكلف الى مسايرة الفِطَر .

ولقد أغفل المؤرخون الذين وقفنا على مؤلفاتهم شأن البهاء زهير فى ديوان الإنشاء ، حتى من تخصص منهم بهذا الموضوع كالقلقشندى صاحب كتاب صبح الأعشى ، فلم يرو لنا منهم أحد شيئا من الرسائل التى كتبت بقلمه على كثرة ما نقلوا من رسائل كتّاب هم دونه مقاما .

وكل ما عثرنا عليه من ذلك رسالته فى الرد على كتاب لويس التاسع ملك فرنسا الى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وسنعرض لها فيما بعد .

ذكر هذه الرسالة الإسحاقى فى تاريخه ، ثم أوردها المقريزى فى خططه ، ونقلها على مبارك باشا فى الخطط التوفيقية .

وهذه الرسالة المفردة تهدى ، عند مقارنتها بما كان يكتبه القاضى الفاضل والعماد الكاتب وأضرابهما ، الى المَنازع التى اختص بها البهاء

زهير ويعين على ذلك ديوان شعره . وعسى أن يوفّق الباحثون الى أخوات لهذه الرسالة تزيدنا علما بطريقة البهاء زهير وخصائصها .

هذا ، ولست أعرف شاعرا نفخت مصر فيه من روحها ما نفخت فى البهاء زهير، فهو مصرىّ فى عواطفه ، وفى ذوقه ، وفى لهجته الى الغاية القصوى ، وان كان مولده فى بلاد الحجاز .

من أجل ذلك كله ، وضعتُ هذا البحث فى البهاء زهير الشاعر المصرىّ ، إحياء لذكرى رجل جدير بأن يحيا بيننا تَذْكاره . وقد سبقنى فى العام الماضى الى نشر بحوث فى البهاء زهير وشعره الأستاذان المنشاوى والسقا المدرسان بالمدارس الثانوية الأميرية ، والأستاذ الشايب المدرس بالجامعة المصرية ، واطلعت على ما كتبوا بعد أن فرغت من رسالتى .

وقد تحرّى الأساتذة مطابقة المنهج الذى وضعته وزارة المعارف لدرس الأدب العربى وتاريخه ، فلهم فى البحث وجهة غير وجهتى ، وهذا ما يسوّغ لى أن أنشر رسالتى بعد أن نشروا كتابيهم القيمين ، معترفا بفضلهم ، مثنيا عليهم جميل الثناء .

مصر فى مارس ١٩٣٠ مصطفى عبد الرازق

البهاء زهير

أبو الفضل[1] زُهَير بن محمد بن علىّ بن يحيى بن الحسن بن جعفر ابن منصور بن عاصم المهلّبىّ العَتَكىّ الأَزْدىّ الملقب بهاءَ الدِّين المعروف بالبهاء زهير .

والمهلّبىّ نسبة الى المهلَّب بن أبى صُفْرَة ، فالبهاء زهير ينتسب الى المهلّب الذى كان من أشجع النّاس وكان سيّدًا جليلا .

رُوِى أنّه قدِم على عبد الله بن الزُّبَيْر أيّامَ خلافته بمكة ، فخلا به عبد الله يشاوره ، فدخل عليه عبد الله بن صَفْوان بن أمية القرشىّ ، فقال : من هذا الذى قد شَغَلك يا أمير المؤمنين يومَك هذا؟ قال : أمَا تعرِفه؟ قال : لا ، قال : هذا سيِّد أهل العِراق ، قال : فهو المهلّب بن أبى صفرة! فقال المهلّب : مَنْ هذا يا أمير المؤمنين؟ قال : سيّدُ قريش ، قال : فهو عبد الله بن صفوان؟ قال : نعم . وتُوُفِّى المهلَّب سنة اثنتين وثمانين وخلّف عدّةَ أولاد نُجباء أجوادا أمجادا ، وتسلسل المجد فى ذُرّيّته زمنًا طويلا .

والعتكىّ (بفتحتين) نسبة الى العَتِيك : بطن من قبيلة الأَزْد . والأزد هى أزد شَنُوءَة ، ويقال الأسد بالسين .

---

(١) فى كتاب النجوم الزاهرة لأبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ : « أبو الفضل وقيل أبو العلاء » .

ويصف بعض المؤرخين البهاء زهيرا بالحجازى، ويصفه بعضهم بالمصرى، ويجمع له آخرون بين الوصفين .

ولئن كان مولد البهاء زهير بمكة أو بوادى نخلة بالقرب من مكة، فى روايتين رواهما عنه ابن خلكان الذى عرفه واجتمع به، فإن البهاء زهيرا مصرى المنشأ، مصرى الروح، مصرى العاطفة، وهو القائل :

فرعَى الله عهدَ مصرٍ وحيّا ما مَضَى لى بمصرَ من أوقاتِ
حبّذا النيلُ والمراكبُ فيه مُصعِداتٍ بنا ومُنحدِراتِ
هاتِ زِدْنِى من الحديثِ عن النيـ ـلِ ودَعْنِى من دِجلةٍ والفُراتِ
وليالىَّ بالجزيرةِ والجيـ ـزةِ فيما اشتهيتُ من لذّاتِ
بين روضٍ حكى ظهورَ الطواويـ ـسِ وجوٍّ حكى بطونَ البُزاةِ
حيث مجرى الخليج كالحيةِ الرقـ ـطاء بين الرياضِ والجنّاتِ

والقائلُ :

ولمْ أرَ مصرًا مثلَ مصرَ تروقُنى
ولا مثلَ ما فيها من العَيْشِ والخَفضِ
وبعدَ بِلادى فالبلادُ جميعُها
سواءٌ، فلا أختارُ بعضًا على بعضِ

والقـائلُ :

أأرحَلُ عن مصرٍ وطيبِ نعيمها ... وأيُّ مكانٍ بعـدَها لِيَ شائِقُ
وأتركُ أوطانًا ثَراها لِناشـقٍ ... هوالطِّيبُ لاما ضُمِّنَتْه المفارقُ
بلادٌ تروقُ العينَ والقلبَ بهجةً ... وتجمـعُ ما يهوى تقيٌّ وفاسـقُ

وهو الذى يقول أيضا :

سَقَى واديًا بين العَرِيشِ وبَرْقةٍ ... من الغيثِ هطَّالُ الشآبيبِ هتانُ
وحيّا النسيمُ الرَّطْبُ عنِّيَ اذا سَرَى ... هنالك أوطانًا اذا قيل أوطانُ
بلادٌ متى ما جئتَها جئتَ جنةً ... لعينك منها كلما شئتَ رضوانُ
تُمثّــلُ لى الأشواقُ أنّ ترابَهـا ... وحصباءَها مسكٌ يفوحُ وعقيانُ
فياساكِنِي مصرٍ تُراكم علِمتمُ ... بأنِّيَ مالى عنكمُ الدهرَ سُلوانُ
وما فى فؤادِى موضعٌ لسواكمُ ... ومن أين فيه وَهْوَ بالشوقِ ملآنُ
عسى الله يطوِى شُقّةَ البعدِ بيننا ... فتَهْدأَ أحشاءٌ وتَرْقأَ أجفانُ
علىّ بذاك اليــومِ صومٌ نَذَرتُه ... وعندِى على رأى التصوُّف شُكرانُ

ومَن كان هذا هُتافه بحبِّ مصر فهو مصرىٌّ وإن كان مسقط رأسه بلاد الحجاز باجماع من ترجموا له .

* * *

ولد البهاء زهير خامس ذى الحجة سـنة ٥٨١ — (٢٧ فبراير سنة ١١٨٦) . وتوفى قبل مغرب يوم الأحد رابع ذى القعدة من

سنة ٦٥٦ — (٢ نوفمبر سنة ١٢٥٨) بوَبَاءٍ حدث بمصر والقاهرة ذلك العام ، ودفن من الغـد بعد صلاة الظهر بتربتـه فى القرافة الصغرى غيرَ بعيد من قُبّة الإمام الشافعى رضى الله عنـه فى جهتها القبليـة .

ونشأ البهاء زهير فى مدينـة قوص بالصّـعيد الأعلَى كما ذكره السيوطى فى "حسن المُحَاضرة" . ولم يذكر ابن خلّكان فى ترجمته الطويلة للبهاء زهير نسبتَه الى قوص ، لكنه ذكر فى ترجمته لجمال الدِّين ابن مَطْروح أنّه كان بين الاثنين صحبةٌ قديمة من زمن الصّبا ، وإقامتهما ببلاد الصّعيد حتى كانا كالأخَوين ، وليس بينهما فرقٌ فى أمور الدنيا ، ثم اتّصلا بخدمة الملك الصالح وهما على تلك المودة . وابنُ مطروح من مدينة أسيوط . وقوص يومئذ هى أكبرُ مدنِ الصعيد ، وليس بأرض مصر بعد الفُسْطاط مدينةٌ أعظمُ منها ، وهى باب مكة واليمن والنُّوبة وسواكن ، حَفلة الأسواق ، مُتّسعة المرافق ، فيها تنزلُ القوافل الواردة من بحر الهند والحَبش واليمن والحجاز ، وفيها كثير من الفنادق والبيوت الفاخرة ، والحمّامات والمدارس والبساتين ، ويسكنها أرباب الصنائع والفنون والتجار والعلماء والأغنياء ، وكانت ملتقى الحُجّاج المغاربة والمصريين والإسكندريّين ومن يتّصل بهم ، منها يذهبون الى جُدّة واليها انقلابهم فى صدورهم من الحجّ .

وقوص من قديم الزمان منبع العلم والعلماء . ويقول صاحب كتاب "الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد" وهو كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر الأدفوى المتوفى سنة ٧٤٨هـ (١٣٤٧م) : إن بقوص ستة عشر مكاناً للتدريس .

ولم يرد للبهاء زهير ذكر فى كتاب الأدفوى إلا عرضًا .

ولم يحدثنا أحد ممن ترجموا للبهاء زهير عن سيرة أبيه ، غير أنا وجدنا فى نسخة خطية قديمة بدار الكتب المصرية لديوان شعر البهاء زهير — رقم ٢٠٥١ أدب — وصف أبيه « بالعارف محمد قدّس الله رُوحه » ، وينعت بذلك فى العادة أهل الصلاح والتقوى .

وانتقال والد البهاء زهير من مكة الى قوص فى تاريخ غير معروف ، إلا أن كلام المؤرخين ، كابن خلكان ، يفيد أن البهاء زهيرا قضى زمن صِباه فى الصعيد ، ونشأ الود بينه وبين ابن مطروح فى ذلك العهد .

وربما يسبق الى الظن أن البهاء زهيراً كان طفلا حين هاجرتْ أُسرته الى وادى النيل ؛ لكنا نجد فى شعره قصيدتين يذكر فيهما عهده بالحجاز . أما أولاهما فهى :

أَحِنّ الى عهدِ المُحَصَّبِ من مِنًى ... وعيشٍ به كانت تَرِف ظِلالُه
ويا حبّذا أمواهُه ونسيمُه ... ويا حبّذا حصباؤه ورِمالُه

ويا أسفى إذ شطّ عنى مزارُه ... ويا حزنى إذ غاب عنى غزالُه
وكم لِيَ بين المروتين لُبانةٌ ... وبدرُ تمامٍ قد حوتْه حِجالُه
مُقيمٌ بقلبي حيث كنت حديثُه ... وبادٍ لعيني حيث سرت خيالُه
وأذكرُ أيامَ الحجاز وأنثني ... كأني صريع يعتريه خبالُه
ويا صاحبي بالخَيفِ كن لي مُسْعِدًا ... اذا آن من بين الحجيج ارتحالُه
وخذْ جانبَ الوادِي كذا عن يمينه ... بحيث القَنَا يهتزّ منه طُوالُه
هناك ترى بيتًا لزينب مشرقًا ... اذا جئت لايخفى عليك جلالُه
فعَرِّضْ بذكرى حيثُ تسمعُ زينبٌ ... وقل ليس يخلو ساعة عنكِ بالُه
عساها اذا مامرّ ذكرى بسمعها ... تقول: فلانٌ عندكم كيف حالُه

والقصيدة الثانية هي :

سقى الله أرضًا لستُ أنسى عهودَها
ويا طُولَ شوقى نحوَها وحنيني
منازلُ كانت لى بهن منازلٌ
وكان الصِّبا إلفى بها وقريني
تذكرتُ عهدًا بالمحصّب من مِنًى
وما دونه من أبْطَحٍ وحَجُون
وأيامَنا بين المقام وزمْزمٍ
وإخوانَنا من وافدٍ وقطين

زمانٌ عَهِدتُ الوقتَ لى فيه واسعاً

كما شئتُ مِن جِدٍّ به ومُجُونِ

إذِ العيشُ نَضْرٌ فيه للعين مَنْظَرٌ

وإذ وجهُه غَضٌّ بغيرِ غُضُونِ

وليست ذكرياتِ طفل هذه الذكريات التى يحنّ البهاء زهير الى عهدها بين المقام وزمزم ، فلا بدّ أن يكون شاعرنا جاء الى قوص فتًى مستكملا .

قال المؤرخون : وانتقل البهاء زهير من قوص بعد أن رُبّى فيها وقرأ الأدب وسمع الحديثَ وبَرَعَ فى النظم والنثر والترسُّل، ووصل الى القاهرة فاتّصل بخدمة السلطان الملك الصالح أبى الفتح نجم الدين أيوب فى حياة أبيه الكامل أيّام كان نائباً عنه .

ويظهر أن البهاء زهيرًا كان اتّصل قبل ذلك بخدمة الأمير مجد الدين إسماعيل بن اللَّمَطىّ الذى هنّأه شاعرنا سنة ٦٠٧ لتولّيه أعمال القوصية بقصيدة هى أوّلُ مديحه — كما فى طبعة پلمر — مطلعها :

تَمَلَّيتَهُ يا لابسَ العِزِّ مَلْبَسَا وهُنِّئْتَه يا غارسَ الجُودِ مَغْرِسَا

ومنها :

به أصبحت قوصٌ اذا هِىَ فاخرتْ

أعزّ قبيلٍ فى الأنامِ وأنْفَسَا

ومنها :

لقد شَرُفت منه الصعيدَ ولايةٌ　　　وأصبح واديه به قد تَقَدَّسا

ونجد للبهاء زهير قصائد فى مدح هذا الأمير يلتمس فى بعضها العونَ منه ، كقوله :

عسى نظرةٌ من حسن رأيكَ صدفة
تسوق الى جَدْبى بها الماءَ والكَلَا
فهأنذا أشكو الزمانَ وصَرْفَه
وتأنَفُ لى عَلياكَ أنْ أتبدَّلا
مقيمٌ بأرض لا مُقامَ بمثلها
ولولاكَ ما أخرتُ أن أتحوّلا
يُجَدِّدُنى بحُسْنِ الرأىِ منك لعلّنى
أرى الدهرَ مما قد جرى متنصلا
وهل كنتُ ألا السيف خالطه الصَّدَى
فكنتَ له ياذا المواهب صَيْقَلا

ونجد فى ديوان البهاء زهير مدحًا للامير وتهنئة بشهر الصوم سنة ٦٠٩ فى قصيدة تفيض بالشكر والثناء ، منها :

مولًى بَدَا من غير مسألة بما　　　جاز المَدَى كرمًا وعاد كما بَدَا
وأنال جُودًا لا السحابُ يُنيلُه　　　يومًا وإن كان السحابَ الأجودا

وفى قصائد أخرى مدحٌ وثناءٌ أيضا، كالقصيدة التى مطلعها :

لها خَفَرٌ يومَ اللقاء خفيرُها ... فما بالُها ضَنَّتْ بما لا يَضِيرُها
وما نالنى من أنعُمِ الله نعمةٌ ... وان عَظُمتْ إلّا وأنت سفيرُها
ومَنْ بدأ النُّعمى وجاد تكرُّماً ... بأوّلها يُرْجَى لديه أخيرُها

ثم نجد بعد ذلك شعرًا للبهاء زهير فى مدح الأمير مجد الدين اللّمطى ينمّ عن شكوى وعَتْب . وفى بعض القصائد تصريحٌ بأن البهاء زهيرًا كان كاتبا للأمير ثم انفصل من خدمته . ففى سنة ٦١٩ أو سنة ٩١٢ (على نسختين مختلفتين من نسخ الديوان أرجّح أولاهما) قال البهاء زهير فى الأمير مجد الدين بن إسماعيل بن اللمطى قصيدته التى أوّلها :

لنا عندكم وعدٌ فهلّا وَفَيتُمُ ... وقلتم لنا قولًا فهلّا فعلتمُ
حَفِظنا لكم ودًّا أضعتم عهودَهُ ... فشتّانَ فى الحالين نحن وأنتمُ

ومنها :

فيا تاركى أنوى البعيدَ من النَّوى ... الى أىّ قومٍ بعدكم أتيمّمُ
ألا إنّ إقليماً نَبَتْ بِىَ دارُهُ ... وإن كثُر الإثراء فيه لَمُعْدِمُ
وإن زماناً ألجأتنى صروفُه ... لخاولتُ بُعْدى عنكم لَمُذَمَّمُ
وأعلم أنّى غالطٌ فى فراقكم ... وأنّكمُ فى ذاك مثلى وأعظمُ
فلا طابَ لى عنكم مُقامٌ بموطنٍ ... ولو ضمّنى فيه المَقامُ وزمزمُ

ومثلُك لا يأسَى على فقدِ كاتبٍ ... ولكنّه يأسَى عليك ويَندَمُ
فمن ذا الّذى تُدنيه منك وتصطفِى ... فيكتبُ ما توحِى إليه ويكتمُ
ومَنْ ذا الذى تُرضيك منه فَطانةٌ ... تقول فيَدْرِى أو تُشير فيَفهمُ
وما كلُّ أزهارِ الرياض أريجةٌ ... وما كلُّ أطيار الفلا تترنّمُ

ومن قصائده التى تنمّ عن العَتْب قصيدةٌ مطلعها :

أعلمتمُ أنّ النسيمَ اذا سَرَى ... نقلَ الحديثَ الى الرَّقيب كما جَرَى

ومنها :

مولاىَ مجدَ الدِّين عَطْفًا إنّ لى ... لَمحبّـةً فى مثلها لا يُمْـتَرَى
يا مَنْ عرفتُ الناسَ حين عرفتُه ... وجَهِلتُهمْ لمـا نَبـا وتنكّرا
خُلُقٌ كماء المُزْن منك عَهِدتُه ... ويَعِزُّ عندى أن يقال تغيّرا
مولاىَ لم أهجُرْ جنابَك عن قِلًى ... حاشاىَ من هذا الحديثِ المُفترَى
وكفرتُ بالرَّحمن إن كنتُ امرأً ... يرضَى لمـا أوليتَـه أن يَكْفُرا

وقال البهاء زهير أيضا يمدح هـذا الأمير وقد انفصل من خدمتـه :

آياتُ مجدك ما لهـا تبديلُ ... وعلوُّ قدرك ما اليـه سبيلُ
أسَفِى على زمنٍ لديك قطعتُه ... وكأنّنى للفرقَدَينِ نزيـلُ
واذا انتسبتُ بخدمتى لك سابقًا ... فكأنّهـا لِى مَعْشَرٌ وقَبيـلُ
هذا هو الأدب الذى أنشأتَه ... فاهتزّ منه روضُـه المطلولُ

وربما دلّ كل ذلك على أنّ هجرة البهاء زهير من قُوص الى القاهرة كانت بعد انفصاله من خدمة اللمطى بعد سنة ٦١٩ ؛ ولعل هِجرته للاتّصال بخدمة الملك الصالح كانت فيما حوالى سنة ٦٢٢ ؛ فإنا نجد له قصيدة فى هذا العهد مدح بها الصالح ، ستأتى الاشارة اليها ، وقد يكون اتّصل قبل الملك الصالح بأخيه الملك المسعود صلاح الدّين أبى المظفَّر يوسف بن الملك الكامل ؛ فانّ فى ديوان شاعرنا قصيدةً مدحَ بها هذا الملك لمّا قَدِم من اليمن سنة ٦٢٠ كما فى طبعة پلمر ، وأول هذه القصيدة :

لكم أينما كنتم مكانٌ وإمكانُ ... ومُلكٌ له تَعنُو الملوك وسلطانُ

ومنها :

هو الملك المسعود رأياً ورايةً ... له سَطوةٌ ذَلّتْ لها الإنسُ والجانُ
غَدَا ناهضًا بالملك يحمل عِبئَه ... وأقرانُه ملكَ المكاتبِ ولِدانُ
وتهتزّ أعوادُ المنابر باسمِه ... فهل ذكرتْ أيامَها وهى قُضبانُ

ومنها :

أُعَلّل نفسى بالمواعيد والمُنَى ... وقد مَرّ أزمانٌ لذاك وأزمانُ
أرى أنّ عِزّى من سواك مَذَلّةٌ ... وإنّ حِبائى من سواك لحِرْمانُ
وليس غريبًا مَنْ اليه اغترابُه ... له منه أهلٌ حيث كان وأوطانُ
وقد قرّب الله المسافةَ بيننا ... فها أنا يحوينى وإيّاه إيوانُ

وقال يمدحه بعد رجوعه من اليمن، وأرسل بها من قوص الى مصر سنة ٦٢١ :

أتتك ولم تبعُدْ على عاشقٍ مصرُ ... ووافاك مشتاقًا لك المدحُ والشِّعرُ
الى الملك المسعود ذى البأس والنَّدى ... فأسيافُه حُمْرٌ وساحاتُه خُضْرُ

وتوجه البهاء زهير فى خدمة الملك الصالح الى البلاد الشرقيّة الى أن ملَك الصالح مدينة دِمَشْق، فانتقل اليها فى خدمته، وأقام كذلك الى أن جَرَت الكائنةُ المشهورة على الملك الصالح وخرجت عنه دمشق وخانه عسكره وهو بنَابُلُس وتفرقوا عنه، وقبض عليه الملكُ الناصر داود صاحب الكَرَك واعتقله بقلعة الكرك. وأقام بهاء الدين زهير بنابلس وفيًّا لصاحبه، ولم يتّصل بغيره؛ ولم يزلْ على ذلك حتى خرج الملك الصالح وملك الديار المصريّة، فعاد اليها فى خدمته، وذلك فى أواخر ذى القعدة سنة ٦٣٧ هـ.

ويقول صاحب كتاب النجوم الزاهرة : إن البهاء زهيرًا دام فى خدمة الملك الصالح نجم الدين أيّوب الى أن تُوُفِّى الملك الصالح.

وفى صبح الأعشى : أن الملك الصالح نجم الدين أيوب حين تولّى ملكَ مصر ولّى ديوان الإنشاء الصاحبَ بهاءَ الدين زُهيرًا، ثم صَرَفه وولّى بعدَه الصاحبَ فخرَ الدين بن لُقمان الأسْعَرْدى، فبقى الى انقراض الدولة الأيّوبيّة.

وفى حسن المحاضرة : ثم وُلّى ديوانَ الإنشاء الصاحبُ بهاء الدين زهيرٌ الشاعر المشهور ، ثم صُرِف ووُلّى بعده الصاحبُ فخرُ الدين إبراهيم بن لقمان الأسعردى ، وأقام الى انقراض الدولة الايوبية .

ولعلّ الصحيحَ أن بهاء الدين زهيراً بقِى فى خدمة الملك الصالح الى أن مات الملك الصالح فى شعبان سنة ٦٤٧ ؛ فقد ذكر المؤرّخون أنه فى سنة ٦٤٦ حدث للملك الصالح نجم الدين ورَمٌ فى باطن رُكبته تكوّن منه ناسور عَسُر برؤه وانضاف اليه قَرْحة فى الصدر ، فلزم الفِراش ؛ إلّا أنّ علوّ هِمّته اقتضى مسيرَه من ديار مصر الى الشام ، فسار فى مِحَفّة ونزل بقلعة دِمَشْق ، ثم خبره مُخبر أن رُوادِ فرنْس (١) عازم على المسير الى أرض مصر وأخذِها ؛ فسار السلطان من دمشق وهو مريض فى مِحَفّة ونزَلَ بأُشموم طَنَاح فى المحرّم سنة ٦٤٧ وأعدّ العُدة للكِفاح عند دِمياط ، وفى أواخر صفر وردتْ جيوش العدو ، وبعث ملكهم الى السلطان كتابَ تهديد ووعيد ، هذا نصّه :

” أمّا بعدُ ، فإنه لم يخفَ عليك أنى أمينُ الأُمةِ العِيسوية ، كما أنه لا يخفى علىّ أنّك أمينُ الأمة المحمدية .

وغيرُ خافٍ عليك أن عندنا أهلَ جزائرِ الأندلُس وما يحملونه إلينا من الاموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوقَ البقر ونقتل الرجال

(١) رواد فرانس أو ريد فرانس : تعريب اللفظ الفرنسى Roi de France بمعنى ملك فرانسا . ومؤرخو العرب يجعلون ذلك علما على لويس التاسع الذى كان يقود الحرب الصليبية السابعة .

ونرمّل النساء ونستأثر بالبنات والصِّبيان ونُخلى منهم الديار؛ وأنا قد أبديتُ لك الكفايةَ، وبذلتُ لك النصيحةَ الى الغاية والنهاية؛ فلو حلفتَ لى بكلّ الايمان، وأدخلتَ علىّ القُسُس والرُّهبان، وحملتَ قُدّامى الشمعَ طاعةً للصُّلْبان، لكنتُ واصلاً اليك، وقاتلك فى أعزّ البقاع عليك؛ فإما أن تكون البلادُ لى فيا هدية حصلت فى يدى، وإمّا أن تكون البلادُ لك والغلبة علىّ، فيدُك اليمنى ممتدّةٌ الىّ؛ وقد عرّفتك وعرفت ما قلتُ لك، وحذّرتك من عساكرَ حضرتْ فى طاعتى تملأُ السهلَ والجبلَ وعددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون إليك بأسياف القضاء" .

فلما قُرِئَ الكتابُ على السلطان وقد اشتدّ به المرض بَكَى واسترجع؛ فكتب القاضى بهاء الدين زهير بن محمد الجواب :

" بسم الله الرحمن الرحيم، وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين . أما بعدُ، فإنه وصل كتابُك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك، ونحن أرباب السيوف، وما قُتل منا قِرْنٌ إلّا جدّدناه، ولا بَغَى علينا باغٍ الا دمّرناه . فلو رأت عينُك أيها المغرورُ حدّ سيوفنا وعِظَمَ حُروبنا، وفتحَنا منكم الحصونَ والسواحل، وتخريبَنا ديار الأواخر منكم والأوائل، لكان لك أن تَعَضّ على أناملك بالندم، ولا بدّ أن تزِلّ بك القدم، فى يوم أوّلُه لنا وآخره عليك؛ فهنالك تسيء الظنون ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَىَّ

مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ . فإذا قرأتَ كتابى هـذا فتكون منـه على أوّلِ سورة النحل : ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، وتكون أيضا على آخر سورة ص : ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ ونعود الى قوله تعـالى وهو أصـدق القائلين : ﴿وَكَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ . وقول الحكماء : «إنّ البـاغى له مَصْرَعٌ» . وبَغْيُكَ يَصْرَعك، و إلى البلاء يُسلمك . والسلام" .

فالبهاءُ زهير كان فى خدمة الملك الصالح فى أواخر صـفر من سنة ٦٤٧، وتوفى الملك الصالح فى أواسط شعبان من تلك السنة بعد أشهر قضاها فى مرض مستمرّ وفى جهادٍ لم يكن كلّه مظفَّرا .

بعد هـذا الفرض الذى أدّى بنـا الى ترجيح أنّ البهاء زهيرًا ظَل مُتصـلا بالملك الصالح الى أن مات الملك الصـالح ، وجدنا فى كتاب تاريخ العينى[1] (الموجود فى دار الكتب المصرية، بالفتوغرافيا ج ١٩) ما يدلّ صريحًا على أنّ الملك الصالح صرف البهاء زهيرا من خدمته قبل موته بقليل ، فرأينا أن ننقل هـذا النص عن نسخة دار الكتب المصرية :

" قلت : وذكر القطب اليونينى فى كتابه الذيل على مراة الزمان، قال فى ترجمة البهاء زهير كاتب الملك الصالح ، قال : فلما خرج الملك الصالح بالكرك من الاعتقال وسار الى الديار المصرية

(١) هو كتاب عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان لبدر الدين محمود العينى المتوفى سنة ٨٥٥ هـ — ١٤٥١ م .

كان بهاء الدين زهيرٌ المذكور فى صحبته ، فأقام عنده فى أعلى منزلةٍ وأجلّ مرتبـةٍ ، هو المشار اليه فى كتّاب الدرج والمتقدّم عليهم ، وأكثرهم اختصاصا بالملك الصالح واجتماعًا به . وسيّره رسولاً فى سنة خمس وأربعين وستمـائة الى الملك الناصر صـلاح الدين يوسف صاحب حلب ، يطلب منه إيفاد الملك الصالح عماد الدين إسماعيل اليه ، فلم يجب الى ذلك وأنكر الناصر هـذه الرسالة غاية الإنكار وأعظمها واستصعبها ، وقال : كيف يَسَعنى أن أسيّر عمه اليه وهو خال أبى وكبيرالبيت الأيّوبىّ حتى يقتله وقد استجار بى ! وأشهد أنى لا أفعلها أبداً . و رجع البهاء زهير الى الملك الصالح نجم الدين هذا بهذا الجواب ، فعظم عليه وسكت على ما فى نفسه من الحنق .

وقبـل موت الملك الصالح نجم الدين أيوب بمُدَيْدة يسـيرة ، وهو نازل على المنصورة ، تغيّر على بهاء الدين زهير وأبعـده لأمرٍ لم يطلع عليه أحدٌ . قال : حكى لى البهـاء زهير أنّ سبب تغيّره عليـه : أنه كتب عن الملك الصالح كتابًا إلى الملك النـاصر داود صـاحب الكرك ، وأدخل الكتاب الى الملك الصالح ليعلّم عليـه على العادة ، فلما وقف عليه الملك الصالح كتب بخطّه بين الأسطر : « أنت تعرف قلة عقل ابن عمى ، وأنه يحبّ من يَصِـله ويُعطيه من يده ، فاكتب له غير هذا الكتاب ما يعجبه » ، وسيّر الكتابَ إلى البهاء زهـير ليغيّره والبهاء زهير مشغول ، فأعطـاه لفخر الدين

ابراهيم بن لقمان فأمَره بختمه وجهّزه إلى الناصر على يد نجّاب ولم يتأمله، فسافر به النجّاب لوقته . واستبطأ الملك الصالح عودَ الكتّاب إليه ليعلّم عليه، ثم سأل عنه بهاء الدين زهيرا بعد ذلك وقال له : ما وقفتَ على ما كتبتُه بخطّى بين الأسطر ؟ قال البهاء : ومَنْ يجسر أن يقف على ما كتبه السلطان بخطه إلى ابن عمه ! وأخبره أنه سيّر الكتّاب مع النجّاب ؛ فقامت قيامةُ السلطان ، وسيّروا فى طلب النجّاب فلم يدركوه، ووصل الكتّاب الى الملك الناصر بالكرك، فعظُم عليه وتألّم له .

ثم كتب جوابه الى الملك الصالح وهو يعتب عليه فيه العتب المؤلم و يقول له فيه : «والله مابى مايصدر منك فى حق، و إنما بى اطّلاع كتّابك على مثل هذا» ؛ فعزّ ذلك على الملك الصالح وغضب على بهاء الدين زهير، و بهاء الدين لكثرة مروءته ينسب ذلك الى نفسه ولم ينسبه لكاتب الكِتاب وهو فخر الدين بن لقمان رحمه الله تعالى .

قال : وكان الملك الصالح كثير التخيّل والغضب والمؤاخذة على الذنب الصغير، والمعاقبة على الوهم، لا يُقيل عثرة، ولا يقبل معذرة " .

و يلاحظ أن ديوان البهاء زهير خِلْوٌ من رثاء الملك الصالح وخِلو من مدائحه إلا قليلا .

كان بهاء الدين زهير كاتبَ ديوان الإنشاء فى عهد الملك الصالح أو كاتب السرّ : وديوان الإنشاء فى عهد الدولة الأيوبية كان عظيما معتنى به ، وكان لايتولاه إلا أجلّ كتّاب البلاغةِ ، ومتولّى رتبة كتابةِ السرّ أعظم أهلِ الدولة .

ومن وظيفة كاتب السرّ قراءة الكتب الواردة على السلطان ، وكتابة أجوبتها ، والجلوس لقراءة القصص بدار العَدْل ، والتوقيع عليها ، وتصريف المراسيم صدورًا وورودًا .

وكانت تجمع كتابةُ السرّ الى الوزارة تارةً ، كما فعل ذلك صلاح الدين الأيوبىّ مع القاضى الفاضل ، وتفصل عنها أخرَى كما استمر عليه العمل بعد القاضى الفاضل .

ويقول بعض المؤلفين : إن بهاء الدين زهيرا كان وزيراً للملك الصالح نجم الدين أيوب ويلقّبونه بالصاحبِ بهاء الدين زُهَير . والصاحب لَقَبٌ للوزير إذا كان من أرباب الأقلام . على أن بهاء الدين زهيرا وإن لم يكن وزيرا فقد كانت رتبتُه ، وهى رياسة ديوان الإنشاء ، تُقاسم الوزارة جاهَها ومجدَها فى عهد الأيوبيّين ، وربما كانت أوفَى منها مجدًا وجاها . ومع هذه المكانةِ العالية فإن البهاء زهيرا مات فقيرا . وفى آخر عمره ، كما فى تاريخ أبى الفداء وتاريخ آبن الوردى ، آنكشف حالُه حتى باع موجودَه وكُتُبَه وأقام

فى بيته بالقاهرة حتى أدركه أجلُه . وأجمع المترجمون له على أنه كان ذا مروءةٍ ولُطفٍ ومكارم أخلاقٍ ، وقد كان متمكنا من صاحبه الملك الصالح ولا يتوسّط عنده إلّا بالخير، ونَفع خلقًا كثيراً، وبلغ من الرِّفعة ما لم يبلغه غيره .

والقارئ لشعر البهاء زهير يحسّ بما فى نفس الشاعر من رقة وحسن ذوق وبعد عن الشرّ والأذى . ومما يدلّ على لُطف رُوحه أنه قلما يهجو بغير الوَصْف بالثِّقل فيقول :

وثقيلٍ كأنما ... مَلَكُ الموتِ قُرْبُه
ليس فى الناسِ كلّهمْ ... مَن تراه يحبّـُه
لو ذكرتَ اسمه على الما ... ءِ لما ساغ شربُه

ويقول :

وجَليس ليس فيـهِ ... قَطُّ مثل الناسِ حِسُّ
لِىَ منه أينما كنـ ... ـتُ على رَغْمِىَ حبسُ
ما له نفسٌ فتنها ... ه ،وهل للصخر نفسُ
إنّ يومًا فيه ألقا ... ه ليومٌ هو نَحْسُ

ويقول :

رُبَّ ثقيلٍ لبغض طلعته ... أخشاه حتى كأنه أجَلِي
وكلما قلتُ لا أشاهده ... ألقاه حتى كأنه عملى

ويقول :

يا ثقيلًا لِيَ مِنْ ... رؤيتــه همٌّ طويلُ
وبغيضًا هـو فى الحلـ ... ـقِ شجيٌّ ليس يزولُ
كلُّ فضلٍ فى الورَى ... أضعافه فيك فضول
كيف لى منك خلاصٌ ... أين لى منـك سبيلُ
حار أمرى فيك حتى ... لستُ أدرى ما أقولُ
أنت واللهِ ثقيـلٌ ... أنت والله ثقيـلُ

ويقول :

والله لو لا خيفةُ التثقيـلِ ... زرتُكَ فى الضحَى وفى الأصيلِ
لكن أرى التخفيفَ عن خليلى ... ولستُ فى العِشرة بالثقيـل

ويقول :

وثقيـلٍ ما بَرِحْنا ... نتمنَّى البعـدَ عنـه
غاب عنا ففرِحنا ... جاءنا أثقلُ منـه

والقارئ لديوانه يشـعرُ بإباء وعِزّة لم تَنَلْهُما إلّا صولة الفقر فى عهد الشباب الأوّل لشاعرنا ، حينما كان يلتمس من الأمير الألطى وغيرِه عونًا ، فى لهجة تكاد تكون تذلُّلا لم يعرِفه بعد ذلك شعرُ البهاء زهير .

وإذ قد وصلنا الى شـعر البهاء زهير فقد وصلنا الى الجـانب المهمّ من بحثنا ، فانّ البهاء زُهَيرًا الشاعرِ المصرى هو مدار حديثنا

لا البهاء زهيرا من حيث هو صاحب ديوان الإنشاء فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب .

ولقد كان الشعر العربىّ قد جَمَد فى صُوَره وأساليبه وموضوعاته فى القرون الأخيرة من العصر العباسىّ بتحكُّم الأعاجم فى شؤون الدولة وقلّةِ تشجيعهم للشعراء، و بتوالِى الفِتَن على الممالك الإسلامية، ثم آنتعش الشعرُ فى وادى النّيل مدّة الفاطميّين (٣٥٨ — ٥٧٦) الذين كان لهم باللغة العربية عناية عظيمة ، وفى عهد الأيوبيين (٥٧٦ — ٦٥٠) الذين راجت فى عهدهم القصير فنون العلم والأدب وازدهرت المدنية .

وفى هذا العهد نشأ البهاء زهير ووَسِعَ شعرُه كلَّ ما أنتجت مدنية ذلك العهد من ثمرات .

قال هُيَار فى كتابه الأدب العربى :

"إن شعر بهاء الدين زهير المهلّبى كاتب السرّ فى الدولة المصرية يجعلنا ندرك ما بلغه لسان العرب من المرونة والاستعداد للتعبير عن ألوف من دقائق العواطف التى صقلتها مدنية خلفاء صلاح الدين الزاهية" .

وفى ترجمة ابن خلكان للبهاء زهير ما يدلّ على أن شعرَ بهاء الدين زهير كان مجموعًا فى حياته متداولًا بأيدى الناس . قال ابن خلكان فى تلك الترجمة :

" وشعره كلّه لطيفٌ، وهو كما يقال السهل الممتنع . وأجازنى روايةَ ديوانه، وهو كثير الوجود بأيدى الناس ... الخ " .

وفى النسخ الخَطِّيَّة الموجودة بدار الكتب المصرية من هـذا الديوان ما يدلّ على أنّ بعض تلامذته جمع شعره وزاد فيه على ما فى ديوانه . ففى آخر صحيفة من نسخة خطيّة (رقمها ٢٠٥١ أدب) ما نصه :

" قال جامع هذا الديوان ، وهو تلميذ الشيخ : هـذا آخر ما وجدت من شعر أبى الفضل زهير بن محمد بن على المهلّبى رحمه الله وأثابه الجنة بمَنّه وكرمه " .

وفى هذه النسخة مقدّمة جاء فيها :

" كل ما كُتِب فى هـذا الديوان وقلتُ قال رحمه الله، فإنى كتبتُه بعد موته رحمه الله بِدِمَشْق المحروسة حماها الله تعالى فى جمادى الأولى من شهور سنة سبع وستين وستمائة ولم أسمعه منه " اهـ .

وتوجد نسخة خطيّة أخرى أوّلها :

" أمّا بعدَ حمد الله على مزيد آلائه ، وشكره على ما تفضّل به من جزيل جزائه " وبعد كلام : " أحببت أن أجمع ما وجدتُ من كلامه مستعينا بالله". كتبت هذه النسخة سنة ١٠٠٢ وليس

فيها ما يدل على اسم جامعها إلا أن بآخرها : "من نعم الله على العبد الفقير محمد بن محمد اليمانى" . وورد فى طبعة پلمر، التى سيأتى ذكرها، ببعض الهوامش : "أن الذى جمع ديوان بهاء الدين زهير بعد وفاته هو شرف الدين، وأن ذلك مذكور فى نسخة حسنة موجودة بمكتبة اكسفورد عليها اعتمد الطابع فى التصحيح .
وشرف الدين هذا هو أبو العبّاس أحمد بن محمد بن أبى الوفاء بن خطاب المعروف بابن الحلاوى المَوْصِلِيّ الأصلِ الدِّمَشْقِ المولد والدارِ .

وقد ذكر ابن خلكان أن شرف الدين المذكور لَقِيَ البهاء زهيرا فى بلاد الشام ومدحه . وفى الديوان قصيدة أرسلها البهاء زهير الى شَرَف الدِّين تعزيةً له فى أخيه سنة ٦٤١ .

وقد طبع ديوان البهاء زهير منذ عهد قديم بمصر وأعيد طبعه مرارًا، وطبع فى بيروت وغيرها . وأوّل طَبَعاته طبعة حَجَرية بمصر سنة ١٢٧٧ هـ وتليها طبعة حجرية أخرى سنة ١٢٧٨ هـ بمصر .

وطبع هذا الديوان بكمبردج سنة ١٨٧٦ فى مجلدين : الأوّل منهما فيه الديوان مع تعليقات وهوامش، وفى أوّله مقدّمة تشتمل على ما للشعر من منزلة سامية عند العرب، وعلى ترجمة صاحب الديوان . والثانى ترجمة للديوان بالانجليزية منظومة شعرا وعليها

شروح ، طبعه أدور هنرى پالمر مدرّس اللغة العربية بمدرسة كمبردج الذى قتله بعض العرب ببادية طورسينا سنة ١٨٨٢ أثناء الحوادث العرابية .

ويقول صاحب « اكتفاء القنوع بما هو مطبوع » : إن ديوان البهاء زهير طبع أيضا فى باريس سنة ١٨٨٣ مع القراءات المتنوعة للمتن الأصلى العربى .

⁂

كانت للشعر نهضة ، كما قلنا ، فى عهد الفاطميين فالأيوبيين ، والبهاء زهير من أئمة النهضة الشعريّة فى عصر بنى أيّوب .

وعبقريّة البهاء زهير فى هذه النهضة تتجلّى من نواحى ثلاث :

(١) ناحية الأسلوب .

(٢) « الأوزان .

(٣) « الموضوعات التى يتناولها الشعر .

الناحية الأولى ناحية الأسلوب : كان عصر البهاء زهير من جهة اللّغة شبيها بعصرنا هذا ، ففيه لهجة يستخدمها الناس فى معايشهم ومعاملاتهم ، ويعبّرون بها عن أفكارهم وعواطفهم فى حياتهم اليوميّة ، ولهم لهجةٌ أخرى لا يلجئون اليها إلا اذا عالجوا النظم أو حاولوا الإنشاء . كانت لغةُ الحياة فى شتّى مظاهرها لغةً ملحونةً ، ولكنها تُساير الحياةَ فى حركتها وانتقالها ، وتصل بسهولة الى أفهام

العامّة والخاصّة. وكانت لغةُ الشعر والكتابة لغةً مستقيمةَ الإعراب تتسامى عن التبذُّل للعامة، وتحاول أن تتّصل بأساليب الشعر القديم والنثر القديم، باعتبار تلك الأساليب قوالبَ ينبغى أن يُصَبَّ فيها شعرُ ما يتلو من العصور ونثره. ووُجد من الشعراء والكتّاب مَنْ كان همّه أن يزيد لغة القريض والإنشاء تعاليا على لغة العامّة: باختيار العبارات الجزْلة القليلة الاستعمال البعيدة عن الابتذال، وبالتأنّق فى تزيين الأساليب الشعريّة والنثريّة بالمحسّنات البديعية التى قد يكون لبعضها تقديرٌ من الجهة الصناعية، لكنها بعيدة عن جمال البيان والوضوح.

أمّا البهاء زهير فجاء بمذهب جديد، فجعل لغة الحياة الجارية فى بَساطتها ومُرونتها لغةً للشعر بعد تطبيقها على قواعد الاعراب وتقويم مافيها من اللحن جهد المستطاع، وجَرى على ذلك فيما كانت تجيش به نفسه وتفيض به عواطفه من فنون الشعر.

وشعر البهاء زهير كما هو مرآةٌ صادقة لعَصْره بما فيه من فيض الطبع والبعد عن التكلّف، هو أيضا مرآةٌ لعصره من حيث اللغة والتعبير. والروحُ المصرىّ يتجلّى فى هذا الشاعر القومىّ الصعيدىّ بأكثر مما يتجلّى فى أىّ شاعر مصرىّ عرفناه فى القديم والحديث.

وللبهاء زهير فى بعض قصائده تشوّق الى الصعيد :

أحِنّ اليكم كلَّ يومٍ وليلةٍ ... وأهذى بكم فى يَقْظتى ومَنَامى
فلا تُنكروا طِيبَ النسيم اذا سَرَى ... اليكم فذاك الطيبُ فيه سلامى
فهل عائدٌ منكم رسولى بفَرحةٍ ... كفرحةِ حُبْلَى بُشّرت بغُلامِ
ويرتاح قلبى للصعيدِ وأهلِه ... وعيشٍ مضى لى عندكم ومُقامِ
وأهوَى ورودَ النِّيل من أجل أنّه ... يمرّ على قومٍ لدىّ كرامِ

ويطول بنا القول لو أردنا أن نستقصى فى شعر البهاء زهير نفحات مصريّته فى التعبير والذوق ، ودلائل دِيمقراطيته فى اللغة وان كان أرِسْتُقراطىّ المَنَازع والأخلاق .

على أننا نذكر لذلك نماذج نُحيل على ديوانه لاستيفائها .

ولا يفوتنا أن نشير الى أن من نفحات المصرية فى أسلوب البهاء زهير كثرة الحَلف فى شعره ، فقلما تخلو قصيدة له من يمين ، حتى ليقول :

ووالله ما فارقتكم من ملالة ... ووالله ما أحتاج أنّى أحلِفُ

* * *

لعلكمُ قد صَدّكم عن زيارتى ... مخافةُ أمواه لدمعى وأنواء
فلو صدق الحبُّ الذى تدّعونه ... وأخلصتمُ فيه مَشَيتم على الماء
وإن يك أنفاسى خَشيتمُ لهيبَها ... وهالتكمُ نيرانُ وجدٍ بأحشائى
فكونوا رفاعيين فى الحبّ مرّةً ... وخوضوا لظى نار لشوقىَ حَرّاء
حُرِمتُ رضاكم إن رَضيت بغيركم ... أواعتضت عنكم فى الجنان بحَوْراء

* * *

قلـبي لديك فكيف أنـ ـتَ على البِعادِ وكيفَ قلبي ؟

* * *

فيا صاحبي مالي أراك مفكراً وحتامَ، قُلْ لي، لاتزال كئيبا

* * *

قال لي العاذل تسلو قلت للعاذل تتعبْ
أنا بالعاذل ألهو أنا بالعاذل ألعبْ
ليس في العُشّاق إلا مَنْ يُغنّي لي وأشرب

* * *

أُحدِّثه اذا غفل الرقيبُ وأسأله الجوابَ فلا يُجيبُ
وأطمعُ حين أعطفه عساه يَلين لأنه غُصنٌ رطيبُ
ويَخفِق حين يُبصره فؤادي ولا عَجَبٌ اذا رَقص الطَّروبُ
فيا مولاي قل لي أيُّ ذنب جنيتُ لعلّي منه أتوبُ
حبيبٌ أنت قل لي أم عدوٌّ ففعلُك ليس يفعله حبيبُ

* * *

أنا فيما أنا فيه وعذولي يتعتّبْ
أنا لا أُصغي لما قا لَ فيَرضَى أو فيغضبْ
يا حبيبي ونديمي والّليالي تتقلّبْ
هاتِ فيما نحن فيه ودَعِ العاذلَ يَتعَبْ

* * *

أرى قوماً بُليتُ بهمْ نصيبي منهمُ نَصَبي
فنهم من يُنافِقني فيكذبُ لي ويحلف بي

ويُلزِمنى بتصـديق الذى قد قال من كذبِ

وذو عُجْبٍ اذا حدثـ … ـتُ عنه جئتُ بالعَجَبِ

وما يدرى بحمد اللـ … ـهِ ماشعبانُ من رجب

وما أبصرتُ أحمقَ منـ … ـه فى عُجْمٍ ولا عَرَبِ

وأحمقَ قد شَقِيتُ به … بلا عقـلٍ ولا أدَبِ

فـلا ينفـكّ يَتبَعُنى … و إن أمعنت فى الهَرَبِ

كأنّى قـد قتلتُ له … قتيـلًا فهـو فى طلبِ

لأمرٍ ما صَحِبتُهُـم … فلا تسأل عن السّبب

يحسن عقلنا أنّا … نصيدُ البازَ بالخَـرَب (١)

وكنّا قـد ظننّا الصُّفْـ … ـرَ عند النقد كالذهبِ (٢)

فـلم نظفَرْ بحاجتنا … وأشفينا على العَطَبِ

رَجَعنا مثلَ ما رُحنا … ولم نَربَحْ سوى التعبِ

✧ ✧ ✧

وزائرة زارت وقد هجم الدُّجَا … وكنت لميعادٍ لهـا مترقبَا

فـما راعنى إلّا رَخـيمُ كلامها … تقول حبيبى قلتُ أهلًا ومَرْحَبا

فقبلت أقداماً لغيرى مامشت … ووجهاً مَصوناً عن سواى محجبا

---

(١) الخرب (بفتحتين) : ذكر الحبارى ، والحبارى طائر معروف ، وهو على شكل الإوزة برأسه وبطنه غبرة ولون ظهره وجناحيه كلون السمانى غالبا . وهو من الطيور الضعيفة ، ومن أمثالهم : "ما رأينا صقرا يرصده خرب" يضرب للشريف يحاول أن يقهره الوضيع .

(٢) الصفر : نوع من النحاس .

ولم ترعيني ليلةً مثلَ ليلتي فياسهري فيها لقد كنتَ طيِّبا
سأشكرُ كلَّ الشكرِ إحسانَ محسنٍ تحيَّلَ حتى زارني وتسببا
حبيب لأجلي قد تعنَّى وزارني وما قيمتي حتى مشى وتعذَّبا

* * *

كم ذا التصاغرُ والتصابي غالطتِ نفسكَ في الحساب
لم يبقَ فيكَ بقيةٌ إلا التعلّل بالخضابِ
لا أقتضيكَ مودةً رُفِعَ الخراجُ عن الخراب
ما العيش إلّا في الشبا بِ وفي مُعاشرة الشّباب
ولقد رأيتُكَ في النقابِ وذاكَ عُنوان الكآبِ
وسألت عمّا تحته قالوا عِظامٌ في جراب
وسمعتُ عنكِ قضيةً سارت بها أيدي الرِّكابِ
هذا وكم من وقفةٍ لكِ في الأزقّةِ للعِتاب
واليومَ قالوا حُرَّةٌ سِتّ الحرائرِ في الحجاب
وأردتُ أنطقُ بالجوا بِ فلم يكن وقت الجواب
يا هذه ذهبَ الصِّبا فإلى متى هذا التصابي
ما هذه شِيَم الحرا ئرِ لا ولا شِيَمُ القِحاب

* * *

لاتطرحْ خاملَ الرجالِ فقدْ تحتاجُ يوماً الى كفايتِه
فالبكُّ في البَرْدِ وهو محتقرٌ خيرٌ من الشَّيْش عند حاجته (١)

(١) والبيت في طبعة بلمر هكذا :

فاللبن في البرد وهو محتقر خير من البيس عند حاجته

* * *

يُعاهدنى لا خانني ثم ينكُثُ
وأحلفُ لا كلّمتُه ثم أحنثُ
وذلك دأبى لا يزالُ ودأبُه
فيا أيها الناس اسمعُوا وتحدّثوا
أقول له صِلنى ، يقول نعم غـدًا
ويكسر جفنًا هازئًا بى ويعبثُ
وما ضرّ بعضَ الناس لو كان زارنى
وكنّا خلونا ساعةً نتحدّثُ
أمولاى إنى فى هواك معذب
وحتّامَ أبقى فى العذاب وأمكث
فخذ مرة روحى تُرِحْنى ولم أكن
أموت مرارًا فى النهارِ وأُبعَثُ

* * *

صديقٌ لى سأذكُره بخيرٍ	وأعرِفُ كنهَ باطنِه الخبيثا
وحاشا السامعين يقال عنه	وبالله اكتموا هذا الحديثا

* * *

مولاىَ من سكر الدلال عَبِثْـ	ـتَ والسكرانُ عابثْ
ونكثتَ عهدًا فى الهـوى	ماخِلتُ أنك فيـه ناكثْ
لك لا أشـكُّ قضيـةٌ	أنا سائلٌ عنها وباحثْ

عَتَبَ الحبيبُ فلم أجِدْ   سبباً لذاك العَتْبِ حادثْ
واليوم لى يومان لم   أره وهــذا اليوم ثالث
ماكنتُ أحسب أنه   ممن تُغَيِّره الحوادثْ
ويَلَذُّ لى العَتْبُ الذى   صِدْقُ الودادِ عليه باعث

* * *

وعائد هــو ســقمٌ   لكلّ جسمٍ صحيح
لا بالإشــارةِ يدرِى   ولا الكلام الصريح
وليس يخرج حــتى   تكاد تخرجُ روحى

* * *

وغادةٍ بوَصْلها مُسامحَــةْ   تحفَظُ ودّى مثلَ حفظِ الفاتحه
وفَتْ بوعدٍ ثم قامتْ رائحَــه   فياصحابى فى الخطوب الفادحه
هَبْكُمْ رَحِمْتم لِىَ نفساً طائحه   هَبْكُم أعنتم بدموعٍ سافحه
ما تفعلُ الثَّكْلَى بنَوْح النائحة

* * *

أتتك وإن كانت كثيراً تأخرت   فانك تعفو عن كثيرٍ وتصفح

* * *

أيها الغافل الذى ليس تُجدى   كثرةُ اللوم فيــه والتوبيخ
إنهــا غفــلة لك الويل منهــا   ما رواها الرواة فى التــاريخ
وكما قيــل هَبْ بأنك أعمَى   كيف تخفَى روائح البِطّيخ

* * *

وحيثما كنتَ كنتَ مولًى   وحيثما كنتُ كنتُ عبدَكْ

* * *

ويا ليت عندى كلَّ يوم رسولكم فأُسكنه عينى وأُفرِشه خدّى
وإنى لأرعاكم على كل حالةٍ وحقّكمُ أنتم أعزُّ الورى عندى
عليكم سلامُ الله والبعدُ بيننا وبالرغمِ منّى أن أُسلّم من بُعدِ

* * *

بحق الله متّعنى من وجهك بالبُعد
فما أشوقنى منك الى الهِجران والصدّ
فما تصلُح للهزلِ ولا تصلُح للجِدّ
وماذا فيك من ثِقْلٍ وماذا فيك من بَرْد
فلا صُبّحتَ بالخيرِ ولا مُسّيتَ بالسعدِ

* * *

وليلة ما مثلُها قطّ عُهِدْ مثل حشا العاشق باتت تتّقِدْ
طلبتُ فيها مُؤنِسًا فلم أجِدْ بتُّ أقاسيها وحيدًا منفرِدْ
طالت فأمّا صبحُها فقد فُقِدْ فتحبَلُ المرأةُ فيها وتلِدْ

* * *

ووعدتنى يومَ الخميس فلا الخميس ولا الأحَدْ
وإذا اقتضيتُك لم تزد عن قول إى والله غدْ
فأعُدُّ أياما تمُرّ وقد ضجِرتُ من العَدَدْ
وتقول أوصيت الخطيب فهل تَفَوّهُ من البلَدْ
وإذا اتكلت على الخطيب فما اتكلت على أحدْ

* * *

تَوَقَّ الأذى من كل نَذْلٍ وساقط فكم قد تأذَّى بالأراذل سيِّدُ

ألم تر أنَّ الليثَ تُؤذِيه بَقَّةٌ ويأخذ من حدِّ المُهَنَّدِ مبرد

* * *

هذه أوّل حاجاتى اليكا وبها أعرف مقدارى لديكا

* * *

سيِّدى قلبِىَ عندكْ سيِّدى أوحشتَ عبدَكْ

سيِّدى قُلْ لى وحدَّثْ نى متى تُنجِز وعدَكْ

أتُرَى تذكرُ عهدِى مثلَ ما أذكر عهدَكْ

أم تُرَى تحفَظُ ودِّى مثلَ ما أحفظ ودَّكَ

قُمْ بنا إن شئتَ عندى أو أكنْ إن شئتَ عندك

أنا فى دارِىَ وحدِى فتفضَّلْ أنت وحدَكْ

* * *

أين مولاى يرانى ودموعى فوق خَدِّى

* * *

وجليس حديثُه للمسرّاتِ طاردُ

مثلُ ليل الشتاءِ فهْـ ـوَ ثقيلٌ وباردُ

* * *

فلا تُرخِصوا ودًّا عليكم عَرضتُه فيارُبَّ معْروضٍ وليس بكاسدِ

وحقِّكمُ عندى له ألفُ طالبٍ وألفُ زُبونٍ يشتريه بزائدِ

اذا كان هذا فى الأقارب فعلكم فماذا الذى أبقيتُمُ للأباعدِ

* * *

وَدِدتُ بأنّى ما رأيتُ وجوهكم   وأنّ طريقا جئتكم منه مسدودُ

* * *

حدّثوا عن طولِ ليلٍ بثّه   هل رأيتم ، هل سمعتم ، هل عُهِدْ
لا رعاه الله ما أطولَه   تحبَلُ المرأة فيه وتَلِدْ

* * *

لنا صديقٌ سيّئٌ فعلُه   ليس له فى الناس من حامدِ
لو كان فى الدنيا له قيمةٌ   يعْناه بالناقص والزائد

* * *

يا غادرين ألم يكن   بينى وبينكم عهودُ
ظهرتْ وبانتْ لى قضيّـ   ـتكم فما هذا الجحودُ؟
وحلفتمُ ما خنتمُ   وعلى خيانتكم شهودُ
يا مَنْ تبدّل فى الهوى   يَهْنِيك صاحبُك الجديدُ
إن كان أعجبك الصدو   د كذاك أعجبنى الصدودُ
وأعلمْ بأنّى لا أريـ   ـدُ اذا رأيتك لا تُريدُ
وأنا القريبُ فإن تغيّـ   ـرَ صاحبى فأنا البعيدُ
يومٌ أُخلّص فيه قلبـ   ـى منك ذاك اليومُ عيدُ
وعساك تطلب أن أعـ   ـودَ الى هواك فما أعودُ
ولقد علمتَ بأننى   لى فى الهوى خُلُقٌ شديدُ

* * *

مولاىَ كُنْ لِيَ وحدِى ... فإننى لك وحـدَكْ
وكن بقلبك عنـدِى ... فإنّ قلبِيَ عنـدك
لى فيـك قصدٌ جميـلٌ ... لا خيّبَ اللهُ قصـدَك
حاشاكَ تُؤثِرُ بعْـدِى ... ولستُ أُوثِرُ بعُـدك
إن تنسَ عهدى فأنِّى ... واللهِ لم أنسَ عهـدك
أضعتَ ودَّ محبٍّ ... ما زال يحفـظ ودّك
مالى عليك اعتراضٌ ... أدِّبْ كما شئتَ عبدك
مولاى إن غبتَ عنِّى ... وا سوءَ حالِيَ بعـدَكْ

* * *

طلبتَ الجميعَ ففاتَ الجميعُ ... فمن سوء رأيك لاذا ولاذا

* * *

باللهِ قـل لِي خبَرَكْ ... فـلِي ثلاثٌ لم أرَكْ
يا أسبقَ النـاسِ الى ... موَدّتى ما أخَّـركْ
وناظرى الى الطـريـ ... ـق لم يَزَلْ منتظرَك
بين جفونى والكرَى ... مذ غِبتَ عنى مُعْتَرَكْ
كيف تغيّرتَ ومَنْ ... هذا الذى قـد غيّرَك
وكيف يا معذِّبى ... قطعتَ عـنى خبرَك
ومن غرامى كلّما ... لامَكَ قلبى عَـذَرك
والله ما خنتُ الهوى ... لك الضّمانُ والدَّرَك
وحقِّ عينيك لقـد ... نَصَبتَ عينيك شَرَك

وحاسدٍ قال فما أبقى لنا ولا ترك
ما زال يسعى جهده يا ظبيُ حتّى نفّرك

\+ + +

قد سرّنى هذا الذى بى من ضنًى إن كان سرّك
إن كان ذلك عن رضا ك وقد علمتَ به فأمْرك
أو كان قصدك فى الهوى قتلى يُطيل الله عمرك
مولاىَ ما أحلاكَ فى قتل المحبّ وما أمرّك
تهْ كيف شئت من الجما ل فلستُ أجهلُ فيه قدرك

\+ + +

أصبحتُ لا شغلَ ولا مزرعهْ مذبذبًا فى صفقةٍ خاسرهْ
وجملةُ الأمرِ وتفصيلُهُ أصبحت لا دنيا ولا آخرهْ

\+ + +

ويأنفُ الغدرَ قلبي وهو محترقٌ
النارُ واللهِ فى هذا ولا العارُ
وليلةُ الهجرِ إن طالت وإن قصُرت
فمؤنسى أملٌ فيها وتذكارُ

وله فى رثاء

يا واحدًا ما كان لى غيرهُ بعدك واقلّةَ أنصارى
يا منتهى سُؤلى ويا مُشتكى حُزنى ويا حافظَ أسرارى

الدارُ من بعدك قد أصبحتْ   فى وحشةٍ يا مؤنسَ الدار
إن كنتَ قد أصبحتَ فى جنّةٍ   إنّىَ من بعدك فى نارِ

وقال يعاتب امرأة :

يا هذه لا تغلطى   واللهِ مالى فيك خاطرْ
خدعوكِ بالقول المحا   لِ فصحّ أنكِ أمُّ عامرْ
أظننتِ لى قلبًا على   هذى الحماقةِ منك صابر
وسمعتُ عنكِ قضيةً   قد سُطّرتْ فيها دفاتر
نُقلتْ الىّ جميعُها   حتى كأنّى كنتُ حاضر
فمتى أردتِ شرحتُها   لك بالدلائل والأمائر
إن كنتِ أنت نسيتِها   فلكم لها فى الناسِ ذاكر
وسألت عنك فلم أجِد   لك فى جميع الناسِ شاكر
وزعمتِ أنكِ حرةَ   ما هذه شِيمُ الحرائر
فاذا كذبتِ فلا يكن   كذبًا لكل الناسِ ظاهر

* * *

فإن متُّ فى ذا الحبِّ لستُ بأولٍ   فقبلىَ مات العاشقون كثيرُ

* * *

أنا مالى على الجفا   لا ولا البعدِ مُصطبَرْ
أنكرتْ مقلتى الكرَى   حين عرّفتها السّهر
فعسى منك نظرةٌ   ربما أقنعَ النظر

أيها المُعْرِضُ الذى لا رسولٌ ولا خبرْ
وجَرَى منه ما جَرَى ليته جاء واعتذر
كلُّ ذنبٍ كرامةً لمُحَيَّاك مغتفَرْ

* * *

قَصَّروا عمر ذا الجفا طوّل الله عمركم
شَرَّفونى بزورةٍ شرّف الله قدركم
لو وصلتم مُحبَّكم ما الذى كان ضرّكم
مِتُّ فى الحبِّ صبوةً أعظم الله أجركم

* * *

إنِّى أدِلُّ لأننى ضيفٌ ومملوكٌ وجارُ

* * *

ويا قمر الأفق عُدْ راجعًا فقد بات فى الروض عندى قمرْ
ويا ليلتى هكذا هكذا وبالله بالله قِفْ يا سَحَرْ
خلَوْنا وما بيننا ثالثٌ فأصبح عند النسيم الخبر

* * *

أثرتَ الهوَى ثم تبكى أسىً فمنك الرياحُ ومنك المطَرْ

* * *

لى حبيبٌ لا يُسمَّى وحديثٌ لا يُفسَّرْ
آهِ لو أمكننى القو لُ لعلِّى كنتُ أُعذَرْ
لستُ أرضَى لحبيبى أنّه للناس يُذْكَرْ

وهو معروفٌ ولكن   هــو معروفٌ منكَّرْ
هُــوَ ظبيٌ فإذا ما   سُمتُه الوصلَ تَنَمَّرْ
فترى دمعِي يجـرى   ولسـانى يَتَعــثَّرْ
سـيّدى لا تُطِعِ الـ   ـواشِي وإن قال فأكثر
فحديثى غيرُ ما قــد   ظنّه الواشى وقَــدَّرْ
إنّ ذنب الغَدْرِ فى الحـ   ـبِّ لذنبٌ لا يُكَفَّرْ
طالت الشكوى وملّ الـ   ـسمعُ ممّا يتكرّر
وانقضى عمرى وحالى   هو حالى ما تَغَــيَّرْ

* * *

أرِحْنى منــكَ حتى لا   أرى مَنْظَــرَكَ الوَعْرا
فقــد صرتُ أرى بُعْدَ   كَ عنِّى الراحةَ الكبرى
فما تنفعُ فى الدنيا   ولا تشـفعُ فى الأُخرى

* * *

ليس يشـفى ما بقلبي   منكمُ غيرُ حضـورى
إنّ خَطْبَ البعدِ عنكم   ليس بالخطب اليسيرِ

* * *

وليس اعتمادىَ إلّا عليك   فلا تُخْلني من جميلِ النظرْ

* * *

يا روضــةَ الحسنِ صِلى   فما عليــكِ ضَــيْرُ
فهــل رأيتِ روضــةً   ليس بهــا زُهَــيْرُ

* * *

وصاحبٍ جعلته أميرى   أسكنته فى داخل الضميرِ
أودعته الخفىَّ من أمورى   فكان مثلَ النار فى البَخُورِ
صَحِبتُه ولم يكن نظيرى   قدَّمتُه وهو يرى تأخيرى

* * *

ويومُ سرورِىَ يومَ أراكْ   لأنى بوجهك أستبشرُ

* * *

وترانى باكيًا مكتئبًا   وتراه ضاحكًا مستبشرا
بعضُ ما ألقاه منه أنه   لا يزال الدهرَ بى مُستهترا
وافتضاحى فيه ما أطيبَه   كان ما كان ويدرى مَنْ دَرَى

* * *

أوحشتَنى والله يا مالكى   قطعتُ يومى كلَّه لم أرَكْ

* * *

وأحمقٍ ذى لِحيةٍ   كبيرةٍ مُنتشِرهْ
طلبتُ فيها وجهَه   بشدّةٍ فلم أرَهْ
تبًّا لها من لِحيةٍ   كبيرةٍ مُحتقَرَهْ
مُضحكةٍ ما كان قطُّ مثلها لمَسْخَرَهْ
فلو مضى السوقَ بها   وزَفَّها بالمِزْمَرَهْ
لحصّلت له مُغَلُّ ضَيعةٍ موفَّرَهْ

* * *

لكم عذركم، أنتم سمعتم فقلتمُ ومُحتمَلٌ ماقد سمعتم وجائزُ

* * *

قالوا فلان قد غدا تائبا والبومَ قد صلّى مع الناسِ
قلتُ متى ذاك وأنّى له وكيف ينسى لذّةَ الكاسِ
أمسِ بهذى العين أبصرتُه سكرانَ بين الورد والآسِ
ورحتُ عن توبته سائلا وجدتُها توبة إفلاسِ

* * *

يا مانعًا حُلوَ الرِّضا وباذلًا مُرَّ السَّخَطْ
حاشاك أن ترضَى بأن أموتَ فى الحبّ غلطْ

* * *

يا كثيرَ الجميلِ مثلك مولًى يشترينى جميلُهُ ويبيعُ

* * *

ملأتم فؤادى فى الهوى فَهْوَ مُتْرَعٌ
ولا كان قلبٌ فى الهوى غير مترعِ
ولا عاذلى يَنْفَكّ عنِّىَ إصبعًا
وقد وقعت فى رُزّة الحب إصبعى

* * *

أرى قصدَه أن يقطع الوصلَ بيننا
وقد سلّ سيفَ اللحظ واللحظُ قاطعُ

فإنْ تتفضّلْ يا رسولى فقلْ له
محبُّك فى ضيقٍ وحلمُك واسعُ
فوالله ما ابتلّتْ لقلبىَ غُلّةٌ
ولا نشفتْ منّى عليه المدامعُ
فلا تنكروا منّى خضوعاً علمتمُ
فما أنا فى شىء سوى الحبّ خاضعُ

* * *

فوق خدّيْه لنا وردةٌ فوق الصّفهْ

* * *

ولثمتُ إكراماً له وجهَ الرسولِ وكفّهُ

* * *

دخلتُ مصرَ غنيّاً وليس حالى بخافى
عشرون حِمْل حريرٍ ومثل ذاك نصاف
وجملةٌ من لآلٍ وجوهرٍ شفّافِ
ولى مماليكُ تُرْكٌ من المِلاحِ النّظافِ
فرحتُ أبسُط كفّى وبالجزيلِ أكافى
وصرتُ أجمعُ شملى بسالفٍ وسُلافِ
ولا أزالُ أواخى ولا أزال أُصافى
فصار لى حُرَفاءٌ كانوا تمامَ حِرافى

وكل يوم خوانٌ　　من الجدا والخراف
فبعتُ كُلَّ ثمين　　معي من الأصناف
واستهلك البيعُ حتى　　طَراحتى ولحافى
صرفتُ ذاك جميعاً　　بمصر قبلَ انصرافى
وصرت فيها فقيراً　　من ثروتى وعفافى
وذا خروجى منها　　جَوْعانَ عُرْيانَ حافى

✦ ✦ ✦

تسائلُ عن وجدى بها وصبابتى　　فقلتُ أما يكفيكِ موتى فيكِ
وكانت تُسَمِّينى أخاها تعلُّلاً　　فقلتُ لقد أفسدتِ عقلَ أخيكِ

✦ ✦ ✦

أرسلتُه فى حاجة　　كالماء هَيِّنة المَساغ
فَرِمْتُ حسنَ قضائها　　اذ لم يكن حسنَ البَلاغ
كالخمر يُرسَل للفؤا　　دِ بها وتَصعَدُ للدِّماغ

✦ ✦ ✦

كم ألاقى منكَ مالَا　　أشتهى لاقيتَ حَيْنَكْ!
وعيونُ الناس تستحـ　　يى وما أوقَحَ عينَكْ
لعن الله طريقاً　　جمعتْ بينى و بينَكْ

✦ ✦ ✦

يا هاجرى يحق لَكْ　　وجدتَ غيرى شَغَلَكْ
ويا لسانَ الدمع فى　　شرح الهوى ما أطولَكْ

يأيها السائلُ عَنّى لا تَسَل عمن هلكْ
بِتُّ بليلٍ باته كلُّ عدوٍّ لى ولكْ

* * *

أصبح عندى سَمَكَهْ وكِسرةٌ مُدَرمكه
أردتُ أن أُحْضِرَها على سبيلِ البَرَكه
تجعلها لمَا يجى ءُ بعدَها محرِّكه

* * *

اذا كنتَ مشغولًا وذا يوم جمعةٍ ففى أيّما يومٍ تكون بلا شغلِ

* * *

فعلتُ ما يَلزَمُنى فليتَ غيرى لو فعلْ

* * *

وكنتُ زمانًا لا أقولُ فعلتمُ ولكنّى من بعدها سأقولُ
لَعَمْرِى لقد عَلّمتمونى عليكمُ وإنى اذا عُلّمْتُ فىّ قَبُولُ
سَيَنْدَمُ بعدِى من يُريد قطيعتى ويذكر قولى والزمانُ طويلُ

* * *

وما عيشُ الغريبِ بلا عِيالٍ كعيش القاطنين ذوى العيالِ

* * *

فاذا جئت وغابَ النّاسُ طُرًّا لا يهمّهْ

* * *

ولولا احتقارى فى الهوى لعواذلى صَرفتُ لهم بالى ومِنّى ومِنْهم

* * *

كلما قلت آسترحنا   جاءنا الشيخ الإمامُ
فاعترانا كلّنا منه   انقباض وآحتشامُ
فَهْوَ فى المجلس قَذْمٌ   ولنا فهو فِدامُ
وعلى الجملةِ فالشيـ   ـخُ ثقيلٌ والسلامُ

* * *

هُمْ عَلّموه فصار يهجُرنى   رَبِّ خُذِ الحقّ من مُعَلّمِهِ

* * *

سَلّمْ عَلَىّ اذا مَرَرْ   تَ فلا أقلّ من السلامِ
الغدْرُ فى كلّ الطبا   عِ فلا أَخُصُّك بالملامِ
ما أكثرَ العُذّالَ فى   ولَهِى عليك وفى غرامى
هَبْنِى كتمتُهُم هوا   كَ فكيف أكتُمُهم سقامِى

* * *

يأيها الباذلُ مجهودَه   فى خِدْمةِ أُفٍّ لها خِدْمَهْ
إلى متى فى تَعَبٍ ضائع   بدون هذا تأكل اللُّقمه
تشقَ ومَنْ تشقَى له غافلٌ   كأنك الراقصُ فى الظُّلمه

* * *

بَرِحَ الخفاءُ وقلتُها   مِنّى اليك بلا آحتشامِ
لم تَبْقَ فيك بقيّةٌ   لا للحلالِ ولا الحرامِ

* * *

خَلَيْتُ كلَّ الناسِ ماخَلاَكُمُ   وقلتُ ما لى أحدٌ سِواكُمُ
وأنتُم علىّ ما أجفاكُمُ   خُلُقِي خُلُقِ دائما أرعاكم
وكل ما أسخطنى أرضاكُمُ   والله لا أفلحَ مَنْ يهواكُمُ
وبعد ذا سبحانَ من أعطاكُمُ

* * *

من رآنى يرقُّ لِي   ضائعًا فى يديكُمُ
كان ما كان بيننا   وسلامٌ عليكُمُ

* * *

لعن الله حاجةً   ألجأتنى اليكُمُ
وزمانًا أحالنى   فى أمورى عليكُمُ
فعسى الله أن يُخَلِّـ   ـصَني من يديكُمُ

* * *

تركتِني يا ألفَ مَوْ   لاىَ بألف نِغْمَهْ

* * *

كم أناسٍ أظهروا الزهدَ لنا   فتجافَوْا عن حَلالٍ وحرامِ
قللوا الأكلَ وأبدَوْا وَرَعًا   وآجتهادًا فى صيامٍ وقيامِ
ثم لمّا أمكنتهم فرصةٌ   أكلوا أكلَ الحَزَانَى فى الظَّلامِ

* * *

سَمِع الناسُ وقُلنا   وآفتضحنا وآسترحنا
تُ والبدرُ نديمى   ففعلْنا وتركنا

بات يدعونا التَّصابي ... فسمِعنا وأطعْنا
وجعلناه يقينًا ... بعدَ ما قد كان ظنّا
شكرَ اللهُ لمَنْ بَشَّـ ... ـرَ بالوصلِ وهنّا
لى حبيبٌ لىَ منه ... كلُّ شيءٍ أتمنّى
فهْو بدرٌ يتجلّى ... وهو غصنٌ يتثنّى
كانَ غضبانَ فلمّا ... أن تلاقَيْنا اصطلحنا
يتجنّى ولعَمْرِى ... حقُّه أنْ يتجنّى
جمَعَ الحسنَ وفيه ... غير ذاك الحسنِ معْنَى
مَنْ له مثلُ حبيبي ... قد حوَى حسنًا وحُسْنَى
هاتِ حدِّثْني وقلْ لِي ... ما على العاذلِ مِنّا
نحن لا نسألُ عنه ... ما له يسألُ عنّا

* * *

محبّتي تُوجب إذلالِي ... وأنت ذو فضلٍ و إفضال
و بيننا من سالف الودِّ ما ... يُوجب أن تسألَ عن حالِي
فاجعلْ على بالك شُغْلِي كما ... شُكْرُك لا يبرحُ عن بالِي

* * *

لك يا صديقِي بغلةٌ ... ليست تُساوِي خَرْدَلَهْ
تمشي فتحسبُها العيو ... نُ على الطريقِ مُشكّلَهْ

وتُخَالُ مُدْبِرةً اذا ما أَقبلتْ مُستعجِلَهْ
مقدارُ خُطوتها الطو يلةِ حين تسرع أنملَهْ
تهتز وهْيَ مكانَها فكأنما هِيَ زلزلَهْ
أشبهتَها بل أشبهتْ ك كأنّ بينكما صِلَهْ
تحكِي صفاتِك فى الثّقا لةِ والمهانةِ والبَلَهْ

* * *

فليتَ شعرِى متى تخلو وتُنصِتُ لِى
حتّى أقولَ فقلبِى منك ملآنُ
إياكَ يدرِى حديثًا بيننا أحدٌ
فهمْ يقولون : للحيطانِ آذانُ
مَنْ لِى بنَوْمِيَ أشكو ذا السهادَ له
فهمْ يقولون : إن النومَ سلطانُ
أستخدم الريحَ فى حَمْلِ السلامِ لكم
كأنما أنا فى عصرِى سليمانُ

* * *

تُجَدِّدُ صبوةً فى كلّ يومٍ
وتَسْكَرُ سَكْرةً من كُلّ دنِّ
أقول الحقَّ مالك من صديقٍ
فلا تعتبْ علىّ ولا تلُمْنى

نَصحتُكَ او صَحوتَ قبلَتْ نُصحِى
ولكنْ أنت فى سكرِ التَّجنِّى
ومَنْ سَمِعَ الغناءَ بغيرِ قلبٍ
ولم يَطربْ فلا يَلُمِ المُغَنِّى
مُرادِى لو خبأتُكَ يا حبيبى
مكانَ النورِ من عينِى وجَفْنِى

* * *

لستُ أُصغِى ولا أَعِى ... خَلِّنِى منكَ خَلِّنِى

* * *

إنَّ المليحَ مليحٌ ... يُحَبُّ فى كلِّ لَوْنِ

* * *

تراكُمْ قد بَدَا منكم ... أمورٌ ما عَهِدْناها
كشفتم بيننا أشيا ... ءَ قد كنَّا سَتَرناها
وكَمْ جاءتْ لنا عنكم ... أحاديثٌ رَدَدْناها
وأشياء رأيناها ... وقلنا ما رأيناها
وما زلتم بنا حتى ... جسَرْنا وفعلَناها
وكانت بيننا طاقٌ ... فها نحن سَدَدْناها

* * *

سَيِّدى يومُك هذا ليس يخْفَى عنك رَسْمُهْ
قم بنا قد طلع الفجرُ وقد أشرق نجمُهْ
عندنا وردٌ جَنِيٌّ يُنعش الميتَ شَمُّهْ
ولدينا ذلك الصِّنْفُ الذى عندك علمُهْ
ولنا ساقٍ رشيقٌ أحورُ الطَّرْف أحَمُّهْ
وخِوانٌ يعبَق المسكُ برَيَّاهُ وطَعْمُهْ
وأخ يرضيكَ منه فضلُه الجَمُّ وفهمُهْ
كاملُ الظَّرْفِ أديبٌ شامخ الأنفِ أشَمُّهْ
حَسَنُ العِشْرةِ لا يأتيكَ منه ما تَذُمُّهْ
ومغنٍّ زيرُه أطربُ مسموعٍ وبَمُّهْ
وسرورٌ ليس شيءٌ غير رُؤياك يُتِمُّهْ
فأجِبْ دعوةَ داعٍ أنت من دُنياه سَهْمُهْ
فاذا جئت وغاب الناسُ طُرًّا لا يهمُّهْ

* * *

من اليوم تعارَفْنا ونَطْوِى ما جرى منا
ولا كانَ ولا صارَ ولا قلتم ولا قلنا
وإن كان ولا بُدَّ من العَتْب فبالحُسْنَى
فقد قيل لنا عنكم كما قيل لكم عنا

كفى ما كان من هجرٍ   وقد ذُقتم وقد ذُقنا
وما أحسَنَ أن نَرْجِـ   ـعَ للوصـلِ كما كنّا

* * *

لا تَلُمْـنى أو فَلُمْـنِى   فيـك ظـلمٌ وتجَنِّى
لا تُسَابِقْنِى لِعَتْبٍ   ما بذا تَخْلُصُ منِّى
لا تقـلْ إنّى وإنّى   ليس هذا القولُ يُغنى
أنا لا أسأل عمن   لم يكن يسألُ عنّى
إن تزرنى فبهذا الشـ   ـرط أو لا لا تَزُرْنِى
فاسترحْ بالله من   هذا التَّجَنِّى وأرِحْنى

* * *

يا كتابا من حبيب   أنا مشـتاق اليه
جاءنى منه سلام   سـلّم الله عليـه

* * *

يا رسولى قَبّـلِ الأر   ضَ اذا جئتَ اليـه
ثم عرِّفْه بأنّى   كنتُ غضبانَ عليـه

وفى طبعة پلمر :

إنَّ الرضِىَّ الذى بُليت به   أفعالُه الكلُّ غيرُ مَرْضِىّ
وكنتُ فى شِـدّة برؤيته   كمسـلمٍ فى إسار ذمّىّ
وبعدجهدٍ خلَصْتُ من يدهِ   خلاصَ عظمٍ من كفّ تُركىّ

* * *

مضى الشبابُ وولّى ما آنتفعتُ به
وليتـه فارطٌ يُرْجى تلافيـه
أوليت لى عمـلًا فيـه أُسَرُّ به
أو ليتنى لا جَرَى لى ما جَرَى فيـه
وَا حَسْرَتاهُ لعمـرٍ ضاع أكثرُه
والويلُ إن كان باقيـه كماضيه
مَنْ مثلُ قلبِيَ أو مَنْ مثلُ ساكنِه
ألله يحفَظُ قلـبي والذى فيـه

* * *

مولاىَ يا قلبي العزيـ	ـزَ ويا حياتى الغاليهْ
إنى لأطلبُ حاجةً	ليست عليك بخافيـه
أنعِمْ علـىَّ بِقُبـلةٍ	هِبَـةً وإلّا عاريه
وأعيدها لكَ لا عُدِمْـ	ـتَ - بعينها وكما هِيَهْ
واذا أردتَ زيادةً	خُذْها ونفسى راضيه
فعسى يجود لنا الزما	نُ بخَـلْوةٍ فى زاويه
أو ليتنى ألقاكَ وَحْـ	ـدَكَ فى طريقٍ خاليه

* * *

قالوا كَبِرتَ عن الصِّبا	وقطعتَ تلك الناحيه
فدَعِ الصِّـبَا لرجاله	وآخلَعْ ثيابَ العاريه

ونَعَمْ كَبِرتُ وانما | تلك الشمائلُ باقيه
ويفوح من عِطْفَيَّ أنفا | سُ الشبابِ كما هيه
ويميلُ بى نحو الصِّبا | قلب رقيقُ الحاشيه
فيه من الطَّرَبِ القدي | م بقِيَةٌ فى زاويه

* * *

لو ترانى وحبيبي عند ما | فَرَّ مثلَ الظَّبي من بين يدَىْ
ومضى يعدو وأعدو خلفه | وترانا قد طَوَينا الأرض طَىْ
قال : ما ترجِعُ عنى ؟ قلت لا | قال : ماتطلبُ منّى ؟ قلتُ شى
فانثنى يمرح منى خجلا | وثناه التيهُ عنّى لا الىْ
كِدتُ بين الناس أنْ ألثمَه | آهِ لو أفعلُ ما كان علىْ

* * *

يا أعزَّ الناسِ عندى وعلَىّْ | وحبيبًا هو منّى والىْ
ما له أصبح عنّى معرضًا | تحت ذا الإعراض من مولاى شى
يا حبيبي أين ما أعهدُه | يا تُرى من ذا الذى زاد علىْ
فانثنى اذ مرّ ما كلَّمَنى | كدتُ أن آكلَ من غيظ يدَىْ
أنا مَنْ قد متُّ فى العشقِ به | هنئونى ، ميّتُ العشّاقِ حَىْ

فى هذه الأشعار وكثيرٍ غيرها مما يُوجد فى ديوان البهاء زهير عباراتٌ وأساليبُ مِصْريتها أكثرُ من عربيتها ، والشعراء يتأبَّوْن أن يستعملوها منذ القِدَم وحتّى فى هذه العصور ، ويعدُّون ذلك تَبَذُّلًا

وضعفا وإخلالا بجمال الشعر وجمال البيان، ويؤثرون لغة الشعر في عصور العربية الراقية، حتى لا تكاد تفرق من جهة اللغة بين الشعر الراقى فى مختلف العصور. ولست تجد شاعرا من المعدودين فى أى عصر حتى الآن يرضى أن يستعمل فى شعره كلمة اليك والشيش، ولا أن يقول :

لست أصغى ولا أعى　　　　خلّنى منك خلّنى

ولا أن يقول :

سمع الناس وقلنا　　　　وانتضحنا واسترحنا

أستغفر الله! هم لا يُريدون ذلك، بل ولا يقدرون عليه، فإنما هو السهل الممتنع، كما يقول ابن خلّكان. ولا بد من عبقرية كعبقرية البهاء زهير لتُوفَّق هذا التوفيق فى إنشاء أشعار من الطراز الأول، يطرَب لها الخاصّة ولا تكون العامّةُ أقلَّ بها طَرَبا، بلسان هو لسان التحاور ولسان البيوت والأسواق.

لم يكن البهاء زهير عاجزا عن مجاراة غيره من الشعراء المُتزمّتين فى تخيُّر الألفاظ العربية، المتأنّقين فى تزيينها بالمحسّنات؛ فقد كان رجلا عالما درَس الأدبَ والدّين، وعرَف من أخبار العرب الجاهلية والإسلامية ما ينِمّ عليه شعرُه؛ إذ يُشير الى الحوادث ويذكر أسماء كثيرين من الشعراء وغير الشعراء. واختيارُه لكتابة السرّ فى عهد

الأيوبيين دليلٌ على منزلته من الرياسة العلميّة والأدبية فى ذلك العصر .

بل البهاء زهير قد سَلَك مسلك غيره من الشعراء فى تعبيراتهم وتفكيراتهم فى مدائحه . ومدائحُ البهاء زهير، فى غالبها، دون سائر فنونه الشعريّة طرافةً وإبداعاً، مع أنه شاعرُ القصرِ فى عهد الأيوبيين، كما يقول هُيَار . ومن أمثلة هذه المدائح :

لكَ اللهُ من والٍ ولىّ مقــرّبِ ... فكم لك من يومٍ أغرّ مُحبّبِ
حَلَلْتَ من المجدِ الممنّع فى الورى ... بأرفع بيتٍ فى العَلاء مُطنّبِ
يُقَصِّرُ عن أمثاله كلُّ قيصرٍ ... ويَغْلبُ عن أمثاله كلُّ أغلبِ
جوادٌ متى تَحْلُلْ بواديه تَلْقَه ... كما قيل فى آل الجوادِ المُهلّبِ
أحقُّ بما قال ابن قيس لمالكٍ ... وأولى بما قال ابن أوْسٍ لمُصْعَبِ
ولو شاهد العِجْلىُّ جَدْواه ما انْتَمَى ... لِعكرِمةَ الفيّاضِ يوماً وحَوْشَبِ

ومن قصيدة له يمدح بها السلطانَ الملك الناصر يوسف بن محمد بن عادى بن يوسف بن أيُّوب :

ومذ كنتُ لم ترضَ النقيصةَ شيمَتِى
ومثلُك يا أباها لمثلى ويأنَفُ
ولا أبتغى إلّا إقامةَ حُرْمتى
ولستُ لشىء غيرِها أتأسَّفُ

ونفسى بحمدِ الله نفسٌ أبيَّةٌ
فها هى لا تهفو ولا تتلهّفُ
ولكنّ أطفالًا صغارًا ونسوةً
ولا أحدٌ غيرى بهم يتلطّفُ
أغارُ اذا هبّ النسيمُ عليهمُ
وقلبى لهم من رحمةٍ يترجّفُ
سرورِىَ أن يبدُو عليهم تنعّمٌ
وحزنِىَ أن يبدو عليهم تقشّفُ
ذخرتُ لهم لُطفَ الإله ويوسفًا
ووالله لاضاعوا ويوسفُ يوسفُ
أُكلّفُ شعرى حين أشكُو مَشَقّةً
كأنّى أدعوه لما ليس يؤلفُ
وقد كان معتادًا لكل تغزُّلٍ
تهيمُ به الألبابُ حُسْناً وتُشغفُ
يلوح عليه فى التغزُّلِ رونقٌ
ويظهرُ فى الشكوى عليه تكلُّفُ
وما زال شعرى فيه للرُّوحِ راحةٌ
وللقلب مَسْلاةٌ وللهمّ مَصرفُ

يُنَاغِيكَ فيه الظَّبيُ والظبيُ أحورُ
وَيُلْهيكَ فيه الغصنُ والغصنُ أهيفُ
شكوتُ وما الشكوى اليكَ مَذلّة
وإن كنتُ فيها دائماً أتأنَّفُ

وله قصيدة فى مدح الأمير النصير اللمطى، أولها :

صَفْحًا لهذا الدهرِ عن هَفَواتِهِ — إذ كان هذا اليومُ من حَسَناته
يومٌ يُسَطَّرُ فى الكتابِ مكانُهُ — كمكان بآسم الله فى خَتَمَاتِه

ومنها :

يا معجزَ الأيام قَرْعَ صَفَاته — ومُجَمِّلَ الدنيا بحسن صِفاته
قوم هُم فى البيدِ خير سُراتها — حسباً وهم فى الدهر خير سَرَاتِه
شَرُف الزمانُ بكل نَدْبٍ منهمُ — مُتَيَقّظ وهبَ العُلَا غَفَلاتِهِ
يا مَنْسِكَ المعروفِ أحرمَ منطق — زمنًا وقد لَبّاك من مِيقاتِهِ
هَـذَا زُهَيْرُكَ لا زُهَيْرُ مُزَيْنَةٍ — وافاك لا هَرِمًا على عِلّاتِهِ
دَعْه وحَوْلِيَّاتِه ثم استمِعْ — لزُهَيْرِ عصرِك حسنَ لَيْلِيّاته
لوأُنشِدَتْ فى آلِ جَفْنَةَ أضربوا — عن ذكر حَسَّانٍ وعن جَفَناته

ومن ذلك قوله فى مدح الملك الكامل ناصر الدين أبى الفتح محمد بن الملك العادل وذكر انتزاعه ثغر دمياط من الإفرنج :

بك آهتزّ عِطْفُ الدِّين فى حُلَلِ النَّصْرِ
ورُدّتْ على أعقابها مِلّةُ الكفرِ

وليلة غَزْوٍ للعدو كأنها
بكثرة من أرديته ليلةُ النَّحْرِ

فيا ليلةً قد شرّف اللهُ قدرَها
ولا غروَ أن سمّيتُها ليلةَ القَدْرِ

سددتَ سبيلَ البَرّ والبحر عنهمُ
بسابحةٍ دُهْمٍ وسانحةٍ غُرّ

أساطيلُ ليستْ فى أساطيرِ مَنْ مَضَى
بكل غُرابٍ راح أفتكَ من صَقْرِ

وجيش كمثل الليل هولاً وهيبةً
وإن زانه مافيه من أنْجُمٍ زُهْرِ

وكلّ جوادٍ لم يكن قطُّ مثلُه
لآل زُهَيرٍ لا ولا لبنى بَدْرِ

وباتت جنودُ الله فوق ضوامرٍ
بأوضاحها تُغنى السُّراةَ عن الفجرِ

فلا زِلتَ حتّى أيّد الله حزبَه
وأشرق وجهُ الأرض جذلانَ بالنصرِ

كفى الله دِمياطَ المكارِه، إنها
لَمِنْ قِبلةِ الإسلام فى موضع النحرِ

وما طاب ماءُ النيلِ إلّا لأنه

يَحُلّ محلّ الريقِ من ذلك الثغر

ومن قصيدة يمدح بها علاء الدين على بن الأمير شجاع الدين جلدك :

فيا ظبيُ هلّا كان منك التفاتةٌ

ويا غصنُ هلّا كان فيك تعطّفُ

ويا حرمَ الحسنِ الذى هو آمنٌ

وألبابُنا من حوله تَتَخطّفُ

عسى عطفةٌ للوصلِ ياواوَ صُدْغِه

علىّ فإنّى أعرف الواوَ تَعطِفُ

ومن قصائده فى مدح السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، وذلك فى سنة ٦٢٢ كما فى طبعة پلمر، ولعلها أولى قصائده فى مدحه حين جاء من قوص الى القاهرة واتصل به، :

وعدَ الزيارةَ طَرْفُه المتملّقُ

وتلاف قلبى من جفونٍ تَنْطِقُ

انى لأهوَى الحسنَ حيثُ وجدتُه

وأهيم بالقدّ الرشيقِ وأعْشَقُ

وبليتى كَفَلٌ عليـــه ذُؤابةٌ
مثل الكثيب عليه صِلٌّ مُطـرِقُ

إن عنَّفوا، إن سوَّفوا، إن خَـوَّفوا
لا أنثنى ، لا أنتهى ، لا أفـرَق

ويزيدنى تَلَفًا فأشكرُ فضـلَه
كالمسك تَسحَقُه الأكُفُّ فيَعبقُ

ولقـد سعيتُ الى العَـلاَء بهمّةٍ
تَقضِى لسـعى أنه لا يُخْفِـقُ

وسريتُ فى ليـلٍ كأنّ نجومَـه
من فَـرْطِ غَيْرتها الىّ تُحَـدِّقُ

حـتّى وصلتُ سُرَادِقَ الملك الذى
تقف المـلوكُ ببابه تَسْـترزِقُ

فإليـكَ يا نجـمَ السماءِ فإنّنى
قـد لاح نجمُ الدّين لى يتألّقُ

الصالحُ المـلكُ الذى لزمانـه
حسنٌ يتيـهُ به الزمانُ ورَوْنَق

ملأ القـلوبَ مخافةً ومحبّـةً
فالبأس يُرْهَب والمكارمُ تُعشَقُ

فعـدلتَ حتّى ما بها متظلِّمٌ
وأنلتَ حتّى ما بها مسترزقُ
يا مَنْ رفضتُ النـاسَ حين لقيتُه
حتّى ظننتُ بأنهـم لم يخلقـوا
قيـدتُ فى مصرٍ إليـكَ ركائبى
غيرى يُغـرِّب تارةً ويُشـرِّق
وحَللتُ عنـدك اذْ حللتُ بمعقـلٍ
يُلْـق اليـه مـاردٌ والأبـلقُ
وتيقّنَ الأقـوامُ أنّى بعـدَها
أبدًا الى رُتَبِ العُـلا لا أُسْبَقُ
فرُزقتُ ما لم يُرزقـوا ونطقتُ ما
لم ينطقـوا ولحقتُ ما لم يَلْحقُـوا

وقال يمدح الملك الناصر صلاح الدين بن الملك العزيز محمد :

عَرَف الحبيبُ مكانَه فتـدلَّلا ... وقَنعتُ منـه بوعدٍ فتعـلَّلا
وأتى الرسولُ فلم أجِدْ فى وجهه ... بِشْرًا كما قد كنتُ أعهدُ أوّلا
فقطعت يومى كلَّه متفكِّرًا ... وسَهِرتُ ليـلى كلَّه متململا
وأخذتُ أحسبُ كلَّ شىءٍ لم يكن ... متحـرِّكًا فى فكرتى متخيِّـلا
فلعـلّ طيفًا زار منـه فردّه ... سَهَرى فعاد بغيظه فتقـوَّلا
وعسى نسيمٌ بثّ أكتُمُ سِرَّنا ... عنه فراح يقول عنّى قد سـلا

ولقد خَشِيتُ بأن يكون أمالَه غيرِى ، وطبعُ الغصنِ أن يَتَميَّلا
وأظنّه طلبَ الجديدَ وطالما عَتُقَ القميصُ على آمرئ فتبدّلا
أهوَى التذلُّلَ فى الغرامِ وإنما يأبَى صلاحُ الدّين أن أتذلّلا
مَهّدتُ بالغزل الرقيقِ لمدحه وأردتُ قبل الفَرْضِ أن أتنفّلا
يا مَنْ مديحى فيه صِدقٌ كلُّه فكأنّما أتلو كتاباً مُنزّلا
يامَنْ وَلائى فيه نَصٌّ بيّنٌ والنّصُّ عند القوم لن يتأوّلا

ولعل البهاء زهيرا كان يشعر بما يكتنف مذهبَه الجديدَ فى الشعر من تنقيص خصومِه ، ومن ضعف الأذواق التى أفسدها التكلّف عن تذوقه ؛ لذلك كان يسلك فى الشعر الرسمىّ شعرِ المديح ، المذهبَ القديمَ غالبا ، ويظهر عليه ، فى كثير من الأحيان ، أنه يحاول غير ما فى طبعه ، حتى اذا هتَفت بالشعر عواطفُه ، عاد الى مذهبه السهل البسيط الخالى من التصنُّع القريب من الفِطَر .

ولمذهب البهاء زهير خصومٌ نجد صَدَى أحكامهم فى قول صاحب كتاب « مرآة الجنان وعبرة اليقظان » لليافعى اليمنى المتوفَّى سنة ٧٦٨ :

« قال ابن خلّكان : وكل شعره لطيف ، وذكر شيئا منه فى تاريخه ، ولكن للاختصار والتخفيف لم أكتب شيئا منه ولا أعجبنى ولا قوى عزمى الضعيف » .

لكن لمذهب البهاء زهير مريدون كثيرون يرون شعرَه لطيفًا من السهل الممتنع، كما نقلنا عن ابن خلّكان .

ويرى پلمر، فى مقدّمته لديوان شاعرنا، أنّ عصر البهاء زهير كان أكثر العصور صِلةً بين الثقافة العربيّة وثقافة الغَرْب، بسبب الحروب الصليبيّة وما تبِعها من آستقرار مملكة غَرْبيّة فى فِلَسطين زمنا . ويقول : إن شعر البهاء زهير يُشابه الشعرَ الأوربىّ، وأكثر أفكاره تُحاذى أفكارَ الشعراء الانجليز فى القرن السابعَ عشر .

* * *

ب — الناحية الثانية من نواحى عبقريّة البهاء زهير فى النهضة الشعرية — ناحية الأوزان .

أسلفنا أنه كانت فى عهد البهاء زهير آنتشرت أوزانُ التوشيح الآتية من الأَنْدَلُس، وذلك لا بدّ أن يكون نبّه الشعراء الى فنٍّ من الألحان الشعرية جديد، فآهتدت الفِطَر الموسيقيّة الى آختيار البحورِ اللطيفة والأوزان الموفورة الحظّ من الموسيقى ومن التأثير . وهذا شأن البهاء زهير، فإننا نجده فى غير شعر المديح قلما يَرْكَنُ الى غير الأوزان الخفيفة . يقول :

هو حَظّى قد عَرَفتُهْ   لم يَحُلْ عمّا عهِدتُهْ
فإذا قصّر مَنْ أهـ   ـواهُ فى الودّ عذرتُهْ

غير أنّي لِيَ في الحُـبِّ طريقٌ قـد سلكتُه
لو أراد البُعـدَ عنّي نورُ عيـني ما تبعتُه
إنّ قلبي وهو قلبي لو تجنّى ما تجنّبتُه
كلُّ شيءٍ من حبيبي ما خلا الغدرَ احتملتُه
أنا في الحبّ غيورٌ ذاك خُلقي لاعدمتُه

* * *

وقال دُو بيت :

قَـدْ راحَ عذولِي ومثل ما راحَ أتى
بالله متى نقضـتمُ العهـدَ متى
ماذا ظـنّي بكم وماذا أمـلي
قـد أدرك في سُـؤْلِه من شمِتا

* * *

هَبّ النسـيمُ عليلًا وهو النسيمُ الصحيحُ
وطاب وقتُك فانهَضْ فالآنَ طابَ الصَّبوحُ
وخُذْ عن الكأسِ نُورًا به يُضيء الفَسِـيحُ
مِنْ قهوةٍ طابَ منها طعمٌ ولونٌ وريحُ
في دَنّهـا وهْيَ راحٌ وفي الحشا وهْيَ رُوحُ

* * *

يا مُعرِضًـا مُتَـجَنّيًا حاشاك ياعيني ورُوحي
لم تدرِ ما فعـلَ البكا ءُ عليكَ بالجفنِ القريحِ

وجَرحتَ قلبى بالجفا ءِ فآهِ للقلبِ الجريح
قُبِّحتَ فى بما فعلـ ـتَ ولستَ من أهلِ القبيح
إن كنتَ منّى مُستريـ ـحًا لستُ منك بمستريح
فمتى أفوزُ بنظرةٍ من وجهك الحَسَنِ المليح
لك من ضميرى ما علمـ ـتَ به من الودّ الصريح
وكذاك أنتَ فسَلْ ضميـ ـرَك فهو يشهد بالصحيح

* * *

يافاعلَ الفَعْلة التى آشتهرتْ لم تجرِ فى خاطرى ولا خَلَدِى
فعلتَها بعد عِفّةٍ وتُقًى فيالها سُبّةً الى الأبدِ
هـذا وأنت الذى يُشار له لا عَتْبَ من بعدها على أحدِ

* * *

حبيبى تائهٌ جدًّا أطال العتبَ والصَّدّا
حَمَانى الشُّهد من فيه وخَلّى عندىَ السُّهْدا
وهيفاء كما تهوَى تُريك القدَّ والخدّا
وتُشجيك بألحانٍ تُذيب الجَلْمَدَ الصَّلْدا
ولفظٍ يُوجب الغسلَ على السامع والحَدّا
جزى الرحمنُ شعبانًا تقضى الشكرَ والحمدا
وإن عِشنا لشوّالٍ أعدنا ذلك العهدا

* * *

قد أتانا الطَّبَقُ الملا ... آن بالورد النضيد
غيرَ أنّى لا أُحِبُّ الـ ... ـوردَ إلا فى الخدود
وأتانى منك شعرٌ ... كلُّ بيتٍ بقصيدِ
كامل الحسنِ فما أغـ ... ـناه عن حسنِ النشيدِ

فى رثاء :

أمسيتَ فى قعرِ لحدِ ... ورُحتُ منك بوجدِ
وعشتُ بعدك يا مَنْ ... وَدِدتُ لو عِشتَ بعدى

فى هجو :

لعن الله صاعدا ... وأباه فصاعدا
وبنيه فنازلا ... واحدا ثم واحدا

* * *

جاء الرسولُ مُبَشِّرى ... منها بميعادِ الزيارهْ
أهدَى الىّ سلامَها ... وأتى بخاتِمها أمارَهْ
وأشار عن بعض الحديـ ... ـثِ وحبّذا تلك الإشارهْ
إن صحّ ما قال الرسو ... لُ وهبتُه رُوحى بِشارهْ

* * *

حبّذا دورٌ على النيـ ... ـل وكاساتٌ تدورُ
ومَسَراتٌ تموجُ الأر ... ضُ منها وتمورُ
وقصورٌ ما لعيش ... نلتُه فيها قصورُ

كم بها قد مرّ لى أسـ   ـتغفر الله سـرور
كلّ عيش غيرِ ذاك الـ   ـعيش فى العالَم زورُ
مـنزلٌ ليس على الأر   ضِ له عندى نظيرُ

* * *

وجاهـل أصبح لى عائبًا   قلت على العينين والراسِ
أراه قد عَرّض لى عِرضَه   أشهدكم يا مَعْشَرَ النـاس

* * *

دعونى وذاك الرشا   فوجدِى به قـد فشَا
حَـلالًا حـلالًا له   يُعذّبنى كيف شا
سَرَتْ خمرةُ الريقِ فى   مَعَاطِفِـه فانتشى
فيا مَشْق ذاك القـوا   مِ ويَاطَيَّ ذاك الحشا
مشى لِىَ فى خُفْيـةٍ   فياحبّذا مَنْ مشى
وليس عجيبًا بأن   ترى الظبىَ مُستوحشا

* * *

مالى أراكَ أضـعتَنى   وحَفظتَ غيرى كلّ حِفظِ
متهتّـكا فاذا حضـر   تَ تَظلُّ فى نُسك ووعظِ
فَظًّا علىّ ولم تكن   يـومًا على غـيرى بفظّ
هـذا وحقّ الله من   نكدِ الزمانِ وسُـوء حَظّى

* * *

مائـدةٌ منـوّعة   وقهـوةٌ مشعشعة
وسادة تراضـعُوا   كأسَ الودادِ مترعة

ولا يزيدون على ثلاثةٍ أو أربعهْ
فاليوم يومٌ لم يَزَلْ يومَ سكونٍ ودعهْ
فيا أخى كن عندنا بعد صلاة الجُمُعهْ

❁ ❁ ❁

تائهٌ ما أصْلَفَهْ ويحَ قلبٍ ألِفَه
كاد أن يُتلفَهُ ليتَه لو أتلفَهْ
أىُّ روضٍ زاهرٍ لم أصِلْ أن أقطفَه
وقضيب ناعم لم أُطِقْ أن أعْطِفَهْ

❁ ❁ ❁

تعيشُ أنت وتبقَى أنا الذى متُّ عشْقَا
حاشاك يا نورَ عينى تلقَى الذى أنا ألقَى
ولم أجِدْ بين موتى وبين هَجْرِك فَرْقا
يا أنعمَ الناسِ قُلْ لى الى مَتَى فيك أشقَى

❁ ❁ ❁

أحبابَنا حاشاكمُ من غَضَبٍ أو حَنَقِ
أحبابَنا لا عاش مَنْ يُغْضِبكم ولا بَقِى
هذا دلالٌ منكمُ دعُوه حتى نلتقِى
والله ما خرجتُ فى حبِّى لكم عن خُلُقِى
وما بَرِحتُ فى ستو رِ فضلكم تعَلُّقِى
ويلاه ما يلقاه قلـ ـبى منكمُ وما لَقِى

إن لم تجودوا بالرضا　　فَبَشِّرُوا قلبي الشَّقِي
وَانَجْلتي منكم اذا　　عَتَبتُمُ واحَرَقِي
أكادُ أن أغرَقَ في　　دمعِي أو في عَرَقي
ما حِيلتي في كَذِبِ　　من حاسدٍ مُصدَّقِ

* * *

ويحكَ يا قلبُ أما قلتُ لكْ　　إياكَ أن تهلكَ فيمن هلكْ
حرّكتَ من نارِ الهوى ساكنًا　　ما كان أغناكَ وما أشغلكْ
ولى حبيبٌ لم يَدَعْ مَسْلكًا　　يُشمِتُ بي الأعداءَ إلا سلكْ
ملّكتُه رُوحي ويا ليتَه　　لو رقّ أو أحسنَ لما ملكْ
باللهِ يا أحمرَ خدّيهِ مَنْ　　عَضّك أو أدماكَ أو أخجلكْ
وأنتَ يا نرجسَ عينيه كَمْ　　تشربُ من قلبي وما أذبلكْ
ويا لَمَى مَرْشَفِه إنني　　أغارُ للمِسْواكِ إذ قبّلكْ
ويا مَهَزَّ الغصنِ من عِطفِه　　تبارَكَ اللهُ الذي عدَّلكْ
مولايَ حاشاكَ تُرى غادرًا　　ما أقبحَ الغدرَ وما أجملكْ
ما لكَ في فعلك مِنْ مُشْبِهٍ　　ما تمّ في العالم ما تمّ لك

* * *

كل شيءٍ منك مقبولُ　　وعلى العينين محمولُ
والذي يُرضيك من تَلَفي　　هيِّنٌ عندي ومبذولُ

* * *

وجاهلٍ يجهلُ ما يقولُ أقوالُه ليس لها تأويلُ
لها فصولٌ كلها فضولُ كثيرُ ما يقوله قليـــلُ
فهي فروعٌ ما لها أصولُ كلامُه تمجُّه العقــولُ
أتعبني حديثُه الطويلُ فليتَه كان له محصــولُ
وجملةُ الأمرِ ولا أُطيلُ هو الرّصاصُ باردٌ ثقيلُ

* * *

مالَهُ عَـــنّى مَالَا وتجـــنّى فأطالَا
أتُرَى ذاك دلالا من حبيبي أم مَلالا

* * *

مـنزلٌ إن زرتَه لم تلقَ إلا كَرَمَكْ
وإن تَسَلْ عمن به لم تلقَ إلا خدَمَكْ

* * *

أبا يحيي وما أعرِ فُ من أنت أبا يحيي
فحدِّثني وقُـلْ لى أىُّ شيءٍ أنت فى الدنيا
من الجن؟ من الإنس؟ من الموتى؟ من الأحيا؟
بعيـدٌ منك أن تُفلِحَ فى شيءٍ من الأشـيا
فلا أهلًا ولا سهلًا ولا سَـقيًا ولا رَعْيَـا

* * *

ونـديمٍ بِتُّ منـه ناعمَ البالِ رضـيّا
جاءني يحمـلُ كأسًـا قارن البـدرُ الـثريّا

قال خذها قلتُ خذها | أنت واشربْها هنيّا
لا تزِدْنى فوق سُكرى | بالهوى سكر الحُميّا
عندها أعرضَ عنّى | مُطْرِقَ الرأسِ حَيِيّا
قلت لا والله إلّا | هاتِها كأسًا رَوِيّا
لستُ أعصِى لك أمرًا | لستُ أعصِى لك نَهْيًا
فسقانيها عُقارًا | تترك الشيخَ صَبِيّا
وتُرِيك الغىَّ رشدًا | وتُرِيك الرشدَ غَيّا
لم يزَلْ منّى اليه الـ | ـكأسُ أو منه إليّا
هكذا حتّى بدا الصُّبْـ | ـحُ لنا طَلْقَ المُحَيّا
يالها ليلةَ وصلٍ | مثلُها لا يَتَهيّا

هذه أمثلة الأوزان التى يستعملها البهاء زهير فى شعره والقوافى، وفيها من اللطف وحسن النغمة شىء كثير.

وذكر بعض المترجمين للبهاء زهير أن له وزنا مُخترعًا لا يُخرجه العروض، فى قوله :

يا مَنْ لَعِبتْ به شَمُول | ما ألطفَ هذه الشمائل
نَشْوانَ يهُزُّه دَلال | كالغصنِ مع النسيم مائل
لا يُمكنه الكلامُ لكن | قد حمّلَ طَرْفَه رسائل
ما أطيبَ وقتَنا وأهنَا | والعاذلُ غائبٌ وغافل

عشقٌ ومَسَرَّةٌ وسُكْرٌ والعقلُ ببعضِ ذاكَ ذاهلْ
والبـدرُ يلوح فى قِنـاعٍ والغصنُ يميل فى غلائلْ
والوردُ على الخدود غَضٌّ والنَّرْجِسُ فى العيون ذابلْ
والعيشُ كما نُحِبّ صافٍ والأُنس بما نحبّ كامل

ويُحاول العروضيُّون أن يجدوا لهذا الوزن مخرجًا فى علمهم، كما فعل الدَّمَامينى فى شرح الخَزْرجيّة . وليس الذى يهمنا أن يكون البهاء زهير ٱبتدَع أوزانًا لا يُسيغها علم العروض، لكن البهاء زهيرا من غير شك اختار لشعره ألطف الأوزان وأدناها محبةً الى الذوق السليم، وٱستخرج من ذلك ما لم يكن مستعملا فى عهده ولا قبل عهده ولا بعده إلا قليلا .

* * *

ج — الناحية الثالثة — ناحية الموضوعات الشعرية .

ما وصل الينا من شعر البهاء زهير يجمع كل ما تَعرّض له شعراء العربيّة من فنون الشعر : كالمديح، والهجاء، والغزل، والنسيب، والوصف، والخمريّات، والرثاء، والفخر .

ومديح البهاء زهير أقلّ شعره تَشَبُّعا بِرُوحه فى الغالب؛ وله فيما عدا ذلك نَمَطٌ خاصّ يُخرج الموضـوعات المطروقة الى نوع من الطرافة . وذكر بلمر مثالًا لذلك قولَه فى المشيب :

فقد انجلى ليل الشبا ... ب وقد بدا صبح المشيب
ورأيتُ فى أنوارِه ... ما كان يخفَى من عيوبى

وقوله فى الموت عِشقًا :

أنت رُوحى وقد تملكتَ رُوحى ... وحياتِى وقد سلبتَ حياتى
مِتُّ شوقًا فأحْيِنى بوصالٍ ... أُخبر الناسَ كيف طعمُ المماتِ

وقوله :

نحذ مَرّةً رُوحى تُرِحْنى ولم أكن ... أموتُ مرارًا فى النهارِ وأُبعَثُ

* * *

ألَا إن عندى عاشقَ السُّمْرِ غالطٌ ... وإنّ المِلاحَ البِيضَ أبهى وأبهجُ
وإنى لأهوَى كلَّ بيضاءَ غادةٍ ... يُضىء لها وجهٌ وثغرٌ مفلّجُ
وحسبِى أنّى أتبعُ الحقَّ فى الهَوَى ... ولاشكَّ أن الحقَّ أبيضُ أبلجُ

* * *

يا كثير الصدود والإعراضِ ... أنا راضٍ بما به أنت راض
هاتِ باللهِ يا حبيبى قل لى ... أين ذاك الرضا وأين التغاضى
إن لى حاجةً اليك وإنى ... فى حَياءٍ عن ذكرها وانقباض
حاجة مذ أردتُها أنا فى التعـ ... ـريضِ عنها وأنت فى الإعراض
أملى فيك دونه سيفُ لحظٍ ... ذاكَ مستقبلٌ وهذاك ماضى
أشتهى أن أفوزَ منك بوعدٍ ... ودع العمرَ ينقضى فى التقاضى

* * *

يا مانعاً حلوَ الرِّضا وباذلاً مُرَّ السَّخَطْ
حاشاك أن تَرْضَى بأنْ أموتَ فى الحبِّ غلطْ

وغير ما ذكره يلمر كثيرٌ مضى بعضُه فيما مرّ ، ومنه قول شاعرنا فى كتمان اسم الحبيب :

فَعَرِّضْ اذا حدثتَ بالبانِ والحِمَى
وإيّاكَ أن تَنْسَى وتذكرَ زينبا
ستكفيك من ذاك المسمّى إشارةٌ
ودَعْه مصوناً بالجمال مُحَجَّباً
أشِرْلى بوصفٍ واحدٍ من صِفاته
تكن مثلَ من سَمَّى وكَنَّى ولَقَّبا

* * *

عَجِبتُ لطيفٍ زار بالليل مَضجَعِى
وعادَ ولم يَشفِ الفؤادَ المعذَّبا
وما صدّ عن أمرٍ مريبٍ وإنما
رآنى قتيلاً فى الدُّجى فتهيّبا

* * *

وقوله فى المشيب أيضا :

وليس مشيبا ما ترون بعارضى فلا تمنعونى أن أهيمَ وأطرَبا
فما هو إلا نور ثغرٍ لَثِمْتُه تَعَلّق فى أطراف شعرى فألهبا

وأعجبنى التجنيسُ بينى و بينه ... فلما تبدَّى أشنبًا رُحتُ أشيبا
وهيفاء بيضاء الترائبِ أبصرتْ ... مشيبًا فأبدتْ روعةً وتَعَجُّبا
جنتْ لِى هذا الشيب ثم تجنَّبتْ ... فوا حَرَبا ممن جَنَى وتجنَّبا

* * *

جاءت تودعنى والدمعُ يغلبها
يومَ الرحيلِ وحادى البين مُنْصَلِتُ
وأقبلت وهْىَ فى خوفٍ وفى دَهَشٍ
مثلَ الغزالِ من الأشراك ينفلتُ
فلم تُطِقْ خيفةَ الواشى تُوَدِّعنى
ويحَ الوُشاة لقد نالوا وقد شَمِتوا
وقفتُ أبكى وراحتْ وهْىَ باكيةٌ
تسيرُ عنِّى قليلًا ثم تلتفتُ

وقوله فى الوُشاة :

إنى لأشكرُ للوشاةِ يدًا ... عندى يقِلُّ لمثلها الشكرُ
قالوا فأغرَوْنا بقولهمُ ... حتى تأكَّدَ بيننا الأمرُ

وقوله فى الغَيْرة :

وأُنزِّه اسمكَ أن تمُرَّ حروفُه ... من غَيرتى بمسامعِ الجُلّاسِ
فأقول بعضُ الناسِ عنك كنايةً ... خوفَ الوُشاةِ وأنت كلُّ الناسِ

وأغار إن هبَّ النسيمُ لأنه ... مُغْرًى بهزِّ قوامك المَيَّاسِ
ويَروعني ساقي المُدامِ إذا بدا ... فأظُنُّ خدَّك مشرقًا في الكاسِ

* * *

صدق الواشون فيما زعموا ... أنا مُغْرًى بهواها مغرمُ
فَلْيَقُلْ ما شاء عني لائمي ... أنا أهواها ولا أحتشمُ
غلبَ الوجدُ فلا أكتمهُ ... إنما أكتُمُ ما ينكتمُ
أين من يَرحمني أشكوله ... إنما الشكوى الى من يَرحمُ
أيها السائل عن وجدى بها ... إنه أعظمُ مما تزعمُ
ظُنَّ خيرًا بيننا أو غيرَه ... فحبيبي فيه تحلو التُّهمُ

ورقة البهاء زهير في غَزَله أظهرُ من أن تحتاج الى بيان، وقد استشهد لها پلمر بقول البهاء يخاطب رسولَ حبيبه:

ودَعْني أفُزْ من مُقْلَتَيْك بنظرةٍ ... فعهدُهما من أُحِبُّ قريبُ

* * *

ومن مختاراته في هذا الباب قوله:

وغانيةٍ لما رأتنيَ أعْولت
وقالت عجيبٌ يا زُهَيرُ عجيبُ
رأتْ شعراتٍ لُحْنَ بيضًا بمَفْرِقي
وغُصْنِيَ من ماء الشبابِ رطيبُ

لقد أنكرتْ منّى مشيباً على صِباً
وقالت مشيبٌ؟ قلت ذاك مشيبُ

أروح ولى فى نشوةِ الحب هِزَّةٌ
ولستُ أُبالى أن يقال طروبُ

مُحِبٌ خليعٌ عاشقٌ متهتِّكٌ
يَلَذّ لقلبى كلُّ ذا ويطيبُ

خلعتُ عِذَارى بل لَبِستُ خَلَاعتى
وصَرّحتُ حتى لا يقالَ مريبُ

وَفَى لِىَ مَنْ أهوَى وصَرّحَ بالرضا
يموت بغيظٍ عاذلٌ ورقيبُ

فلا عيشَ إلّا أن تُدارَ مدامةٌ
ولا أُنسَ إلّا أنْ يزورَ حبيبُ

وإنّى ليدعونى الهوَى فأُجيبُه
وإنى ليثنينى التُّقَى فأُنيبُ

فيامَنْ يحبّ العفوَ إنّىَ مذنبٌ
ولا عفوَ إلّا أن تكونَ ذنوبُ

* * *

أهوى الدقيقَ من المحا ... سِنِ والرقيقَ من النسيبِ

* * *

ومن دلائل تساميه فى فهم الجمال عن الصورة المبذولة الى المعنى الدقيق ، تَغَزُّلُه فى آمرأة طويلة ، وفى آمرأة قصيرة ، وفى بيضاء ، وفى سمراء ، وتَغَزُّلُه فى عمياء اذ يقول :

قالوا تَعَشَّقتَها عَمْيَا فقلتُ لهم
ما شانَها ذاكَ فى عينى ولا قدَحا
بل زاد وجدِىَ فيها أنها أبدًا
لا تُبصر الشيبَ فى خَدِّى اذا وضَحا
إن يَجرحِ السيفُ مسلولًا فلا عَجَبٌ
وانما عَجَبِى من مُغْمَدٍ جَرَحا
كأنما هى بستانٌ خلوتُ به
ونام ناظرُه سكرانَ قد طفحا
تَفَتَّح الوردُ فيه من كمائمه
والنَّرجس الغَضُّ فيه بعدُ ما آنفتحا

وله أيضا :

يا صارِفِى القلبِ إلَّا عن محبتِهِمْ
وسالِبى الطَّرْفِ إلا عنهمُ نَظَرَهْ
وبائِمُ الليلَ فى أَمْنٍ وفى دَعَةٍ
وليس عندكُمُ علمٌ بمن سَهِرَهْ

فكم غرستُ وفائى فى محبتكم
فما جَنيتُ لغرسى فيكم ثمره
ولم أنلْ منكمُ شيئاً سوى تُهمٍ
تُقال مشروحةً فينا ومختصره
قويّة العزم فى إتلافِ عاشقِها
ضعيفة الخَصرِ والألحاظِ والبَشَرهْ

ومن ذلك قوله :

فلا تبعثوا لى فى النسيم تحيّةً — فيرتابَ من طيبِ النسيم جَليسى
وكنتم وعدتم فى الخميس بزَوْرةٍ — فكم من خميسٍ قد مضى وخميس
وانى لأرضى كلَّ ما ترتضونه — فإنْ يُرضِكم بُوسى رضيتُ ببُوسى
على أنّ لى نفْساً علىّ عزيزةً — وفى الناسِ عُشّاقٌ بغير نفوس

ويظهر فى غزال البهاء زهيرٍ صدقُ اللّهْجة وكمالُ الفهم لجمال المرأة والتأثر به :

فلا تقرَعُوا بالعَتبِ قلبى فإنّه
وحقّكم مثلُ الزُّجاج صديعُ
سأبكى وإن تنفَدْ دموعى عليكمُ
بكيتُ بشعرٍ رَقّ فهو دموعُ
أحِبُّ البديعَ الحسنِ معنًى وصورةً
وشعرِى فى ذاك البديعِ بديعُ

وله فى العشق وتقديره نظرٌ دقيق، فهو يقول :

ملائمٌ فؤادى بالهوى فهو مُترَعٌ
ولا كان قلبٌ فى الهوى غير مترع

ويقول أيضا :

لحى الله قلبًا بات خِلوًا من الهَوَى
وعينًا على ذكر الهوى ليس تَذْرِفُ
وإنِّى لأهوى كلَّ مَنْ قِيل عاشقٌ
ويزداد فى عينى جلالًا ويَشرُفُ
وما العشقُ فى الإنسان إلا فضيلةٌ
تُدَمِّثُ من أخلاقه وتُلَطِّفُ
يُعظِّم من يهوَى ويطلبُ قُربَه
فيكثُرُ آدابٌ له وتَظَرُّفُ

* * *

أعشقُ الحسَنَ والملاحةَ والظَّرْ ... فَ وأهوَى مكارمَ الأخلاقِ

* * *

إنى لأهوى الحسَنَ حيثُ وجدتُه ... وأهيمُ بالغُصنِ الرشيقِ وأعشَقُ

* * *

فكلُّ ضلالٍ فى هواك هدايةٌ ... وكل شـقاءٍ فى هواك نعيمُ

* * *

لامَ فى الحبِّ أناسٌ وهْوَ أخلاقُ الكرامِ
ما أرى الناسَ سوى العشّـ ـاقِ من كلِّ الأنامِ

ويقـــول :

جزى اللهُ عنّى الحبَّ خيرًا فإنه به ٱزداد مجدى فى الأنام وعَلْيائى
وصيّرَ لى ذكرًا جميـلًا لأننى أحسِّنُ أفعالى لتحسُنَ أسمائى

وقد يكون فى هـذا النظم بعضُ الضّعف ، ولكنه يعبر عن معنى من أشرف المعانى وألطفها .

وغزل البهاء زهير فن فى الأدب العربى خرج عن صُوَر الغزل التى رسمتها التقاليد : فليس بكاءً على الأطلال والدِّمن ، ولا وصفًا لسفر الحبيب على ناقته تجوب الصّحراء ، ولكنّه حكايةٌ لما يجرى بين الأحباب فى الحياة وما يتبادلونه من حِوار وعِتاب ، ونعتٌ لمجالس مُمتِعة بين عاشقين ، ووصفٌ للحبّ نفسِه وما يُحدث فى نفس المحب من نُزوع الى الكمال .

وقصائد البهاء زهير تكون عبارة عن موضوع متّصل المعانى لا تجد فيه ما تجد فى غالب الشعر العربى من تَنَقُّل وٱستطراد يكاد يفقد الصلة بين أجزاء الشعر الواحد . ويُلاحَظ أنّ البهاء زهيرا لا يتحرّج من استعمال العبادة فى الحب ، وهو نادر فى الشعر العربى ، وذلك كقوله :

ومن العجائب فعلُه بمحبِّه يُصليه نارًا وهو من عُبّاده

وقــوله :

سأشكر حُبّاً زانَ فيك عبادتى ... وإن كان فيه ذِلّةٌ وخضوعُ
أُصَلّى وعنـدى للصبابةِ رقّةٌ ... فكلُّ صلاتى فى هواك خشوعُ

وقــوله :

لى حبيبٌ عبـدتُه ... ويحَ مَنْ يعبدُ الوَثَنْ

ومن الفنون الجديدة فى شعر البهاء زهير تسجيلُه لمشاهد وصُوَرٍ تَنِمّ عن حبّـه لوطنه ، وتذوُّقه لما فيه من نعيم طَبَعىّ وغير طَبَعى ، ونذكر من أمثلته :

لله بســتانِى وما ... قَضَّيتُ فيه من المآربْ
لهــفِى على زَمَــنِى به ... والعيشُ مُخْضَرُّ الجوانبْ
وَلَكَمْ بكَرتُ له وقــد ... بكرتْ له أيدى السّحائبْ
فيروقُنى والجــوّ منـ ... ـه ساكنٌ والقَطْرُ ساكبْ
والطَّــلُّ فى أغصانِه ... يحكى عقــودًا فى ترائبْ
وتَفَتّحتْ أزهارُه ... فتأرّجتْ من كلِّ جانبْ
وبدا عــلى دَوْحاتِه ... ثمَــرٌ كأذناب الثعالبْ
وكأنّما آصالُه ... ذَهَبٌ على الأوراق ذائبْ
فهناك كَمْ ذهبيّــةٍ ... لى فى الوُلُوعِ بها مَذاهِبْ

* * *

عَلَا حِسُّ النواعيرِ وأصواتُ الشحارير
وقد طابَ لنا وقتٌ صَفَا من غيرِ تكديرِ
فقُمْ يا ألفَ مولاىَ أَدِرْها غيرَ مأمورِ
وخُذْها كالدنانيرِ على رغم الدنانيرِ
أَدِرْها من سَنَا الصُّبْحِ تَزِدْ نورًا على نورِ
عُقارًا أصبحتْ مثـ ـل هباءٍ غيرِ منثورِ
بدتْ أحسنَ من نارٍ رأتْها عينُ مقرور
نزلنا شاطئَ النيلِ على بُسْطِ الأزاهير
وقد أضحى له بالمو ج وجهٌ ذو أسارير
وفى الشطِّ حَبَابٌ مثـ ـل أنصافِ القواريرِ
تَسابقْنا الى اللهو ووافَيْنا بتبكير
وفينا رَبُّ محرابٍ وفينا رَبُّ ماخورِ
ومن قومٍ مساتيرِ ومن قوم مساخيرِ
ومن جِدٍّ ومن هَزْلٍ ومن حقٍّ ومن زُورِ
فطورًا فى المقاصيرِ وطورًا فى الدساكيرِ
ورهبانٌ كما تدرى من القِبْطِ النحارير
وفيهم كلُّ ذى حُسْنٍ من الإحسان موفورِ
وتالٍ للمزامير بصوتٍ كالمزامير

وفى تلك البرانيس بدورٌ فى دياجير
وجوه كالتصاوير تُصَلِّى للتصاوير
ومن تحت الزنانير خصورٌ كالزنابير
أتيناهم فما بَقَّوْا ولا ضَنوا بمذخور
لقد مَرّ لنا يومٌ من الغُرِّ المشاهير
على ما خلتَه من غير ميعادٍ وتقدير
فقل ما شئتَ من قولٍ وقدّر كلَّ تقدير

ويستطيع الناظر فى شعر البهاء أن يَستخرج أحوالَ عصره فى كثير من الشؤون : فهو يُشير الى عادات وشؤون دينية وغير دينية . وموضوعات شعره متصلة بعواطفه وبحياة زمنه أشد الاتصال ، بخلاف غيره من الشعراء الذين يكون شعرهم صورة لحياة غير حياتهم ، وعواطف غير عواطفهم .

وهذه نماذجُ مما يتضمّنه شعر البهاء زهير من شؤون عصره :

أنا فى الحبّ صاحب المعجزاتِ جئتُ للعاشقين بالآيات
كان أهل الغرام قبلى أُمّيّين حتى تلقنوا كلماتى
فأنا اليوم صاحبُ الوقتِ حقًّا والمحبون شيعتى ودُعاتى
ضُربتْ فيهمُ طُبُولى وسارتْ خافقاتٍ عليهمُ راياتى

* * *

تكهنتُ فى الأمر الذى قد لَقِيتُهُ ولى خَطَراتٌ كلُّهن فتوحُ

* * *

وَاللهِ مذ فارقتكم لم تَصْفُ لى مواردى
فهل زمانى بعدها بقربكم مُساعدى
فكم نذورٍ أصبحتْ علىَّ للمساجدِ

* * *

أيا مَعشَرَ الأصحابِ مالى أراكمُ على مذهبٍ واللهِ غيرِ حميدِ
فهل أنتمُ من قومِ لوطٍ بَقيةٌ فما منكمُ مَنْ فعلُه برشيدِ
فإن لم تكونوا قومَ لوطٍ بعينهم فما قومُ لوطٍ منكمُ ببعيدِ

* * *

وجاهلٍ يَدَّعى فى العلم فلسفةً قد راحَ يكفر بالرحمنِ تقليدا
وقال أعرِفُ معقولاً فقلتُ له عَنَّيتَ نفسَك معقولاً ومعقودا
من أين أنت وهذا الشىءُ تذكرُهُ أراكَ تَقرَعُ باباً عنك مسدودا
فقال إنَ كلامى لستَ تفهمُه فقلتُ لستُ سليمانَ بنَ داودا

* * *

اذا ما أفضْنا فى أفانين ذكرِه يقولُ جهولُ القومِ قد عَبَرَ الخَضِرُ

* * *

وصاحبٍ أصبح لى لائمًا لما رأى حالةَ إفلاسى
قلتُ له إنى امرؤٌ لم أزلْ أُفْنِى على الأكياس أكياسى
ما هذه أوَّلُ ما مَرَّ بى كم مثلها مَرَّ على راسى
دَعْنِى وما أرضَى لنفسى وما عليك فى ذلك من باس
لو نظر الناس لأحوالهم لاشتغل الناسُ عن الناس

* * *

قَلَّ الثِّقاتُ فلا تَركَنْ الى أحدٍ ... فأسعدُ الناسِ مَنْ لا يعرف الناسا
لم ألقَ لى صاحباً فى الله أصحبهُ ... وقد رأيتُ وقد جَرَّبتُ أجناسا

* * *

قصدتكُم أرجو انتصاراً على العِدَا ... حَسِبتُكُمُ ناساً فما كنتم ناسا
فلم تمنعوا جاراً ولم تنفعوا أخاً ... ولم تدفعوا ضيماً ولم ترفعوا راسا

* * *

لما التحى وتبدّلت ... تلك السعودُ له نُحوسا
أبديت لما راح يحـ ... ـلِقُ خَدَّه معنًى نفيسا
وأذعتُ عنه أنَّه ... لم يَقصِدِ القصدَ الخسيسا
لكنْ غدَا وعذارُهُ ... خَضِرٌ فساق اليه موسى

* * *

ما أصعبَ الحاجةَ للناسِ ... فالغُنْمُ منهم راحةُ الياس
لم يَبقَ فى الناس مُواسٍ لمن ... يُظهر شكواه ولا آسِى
وبعد ذا مالك عنهم غِنًى ... لا بُدّ للناس من الناس

* * *

أأحبابَنا حاشاكُمُ من عيادةٍ
فذلك أمرٌ فى القلوب مَضيضُ
وما عاقنى عنكم سوى السَّبتِ عائقٌ
ففى السبتِ قالوا ما يُعاد مريضُ

وللناس عاداتٌ وقد ألفوا بها
لها سُنَنٌ يرعونها وفروضْ
فمَنْ لم يعاشِرهم على العُرْفِ بينهم
فذاك ثقيلٌ بينهمْ وبغيضُ

* * *

وقائلةٍ لما أردتُ وداعَها | حبيبي أحقًّا أنت بالبين فاجعي
فيارَبِّ لا يَصْدُقْ حديثٌ سمعتُه | لقد راعَ قلبي ما جرى في مسامعي
وقامت وراء السِّترِ تبكي حزينةً | وقد نقبته بيننا بالأصابع
بكتْ فأرتني لؤلؤًا متناثرًا | هوى فالتقته في فضول المقانع
ولما رأتْ أنّ الفراقَ حقيقةٌ | وأنّي عليه مُكرَهٌ غيرُ طائع
تبدّتْ فلا والله ما الشمسُ مثلُها | اذا أشرقتْ أنوارُها في المطالع
تُسلّمُ باليمنى عليَّ إشارةً | وتمسحُ باليسرى مجاري المدامع
وما برحتْ تبكي وأبكي صبابةً | الى أن تركنا الأرضَ ذاتَ نقائع
ستُصبِح تلك الأرضُ من عبراتنا | كثيرةَ خِصْبٍ رائق النبت رائع

* * *

أيها النفسُ الشريفهْ | إنما دنياكِ جيفَهْ
وعقولُ الناس في رَغْـ | ـبتهم فيها سخيفـه
آهِ ما أسعدَ مَنْ كا | نَتْه فيها خفيفـه
أيها المسرفُ أكثرْ | تَ أبازيرَ الوظيفـه
أيها المغرور لا تفـ | ـرَحْ بتوسيع القطيفه

أيها المسكينُ هَبْ أنّـ ـك فى الدنيا خليفه
هل يَرُدّ الموتَ سلطا نُك والدنيا الكثيفه

* * *

كلامِى الذى يصبو له كلُّ سامع
ويهواه حتى فى الخدور العواتقُ
كلامى غَنِىٌّ عن لحونٍ تزيِّنُه
له مَعْبَدٌ من نفسه ومُخارِقُ
لكلِّ امرئٍ منه نصيبٌ يخُصُّه
يُلائم ما فى طَبْعِه ويُوافق
يُغَنِّى به النَّدْمانُ وهْوَ فكاهةٌ
ويُنْشده الصُّوفِىّ وهو رقائق
به يقتضى الحاجاتِ مَنْ هو طالبٌ
ويستعطف الأحبابَ من هو عاشقُ

* * *

تعلمت خَطَّ الرملِ لما هجرتُمُ لعلِّىَ أرى شكلًا يدُلُّ على الوصلِ
ورَغّبنى فيه بياضٌ وحمرةٌ عَهِدتُهما فى وجنةٍ سلَبتْ عقلى
وقالوا طريقٌ قلتُ يارَبِّ للرِّضَا وقالوا اجتماعٌ قلت ياربِّ للشَّمْلِ
فأصبحتُ فيكم مثلَ مجنونِ عامرٍ فلا تُنكروا أنّى أخُطُّ على الرملِ

واذا كان البهاء زهير شاعر مهنة فى مدائحه غالبا، فهو فى سائر قريضه شاعر الطبع؛ وله نفثات تجلّى نفسه على ما هى عليه وترسمُ سجاياها، كقوله :

يا سائلى عمّا تجـدّد بى ألحالُ لم تنقُصْ ولم تزِدِ
وكما علمتَ فإننى رجلٌ أفْنَى ولا أشكو الى أحدِ

* * *

ومِنْ خُلُقى أنّى ألوفٌ وأنه
يطـول التفـاتى للذيـن أفارِقُ
يحــرّك وجدى فى الأراكة طائرٌ
ويَبعثُ شَجْـوِى فى الدُّجُنّـةِ بارقُ
وأُقسِمُ ما فارقتُ فى الأرض منزلًا
ويُذْكر إلّا والدموعُ ســوابقُ
وعندى من الآداب فى البعدِ مؤنسٌ
أُفارِقُ أوطـانِى وليس يُفـارِقُ
ولى صبوة العُشّاقِ فى الشعرِ وحدَه
وأمّا ســواها فَهْىَ مِنّى طـالقُ

* * *

مذ كنتُ لم تكنِ الحيا نهُ فى المحبّـة من خلاقى
ولقد بكيتُ وما بكيتُ من الرياءِ ولا النّفـاقِ

برقيقــةِ الألفـاظ تمحـ ... كى الدمعَ إلا فى المَذاقِ
لم تدرِ هل نطقتْ بها الـ ... أفواهُ أم جَرَتِ المآقى
لَطُفتْ معانيها ورَقَّـ ... تْ والحلاوةُ فى الرِّقاقِ
مِصْـرِيةٌ قـد زانَهـا ... لطفًا مجاورةُ العِـراقِ

* * *

كذلك تلقانى اذا ما ذكرتنى ... يَسُرُّ حفاظى صاحبى وقرينى
اذا قلتُ قولًا كنتُ للقولِ فاعلًا ... وكان حَيائى كافلى وضَمينى
تُبَشِّـرُ عنّى بالوفاءِ بَشاشتى ... وَينطِقُ نورُ الصدقِ فوقَ جبينى

* * *

الى كم مُقـامِى فى بلادِ مَعاشرٍ ... تَساوى بها آسادُها وذئابُها
وقلدتُهـا الدُّرَّ الثمينَ وإنه ... لعَمْرُكَ شيءٌ أنكرتْه رِقابُها
وما ضاقتِ الدنيا على ذى مُروءةٍ ... ولا هو مسدودٌ عليـه رِحابُها

* * *

وإنى اذا آرتاب الوشاةُ لأدمعى ... لدى مُحَجٍ لم يُبْدِها عاشق قبلى
وأستعملُ الكحلَ الذى فيه حِدَّةٌ ... وأُوهِمُ أنَّ الدمع من شدة الكحلِ
فيا صاحبى أمّا علىّ فلا تخَفْ ... فما يَطْمعُ الواشون فى عاشقٍ مثلى
ودَعْنِى والعُذّالَ مِنِّى ومنهـمُ ... سيَدْرون مَنْ منّا يَمَلُّ من العَذْلِ

وكتب الى الوزير فخر الدين أبي الفتح عبد الله بن قاضي داريا يشكو إليه بعض غلمانه :

سواكَ الذى وُدّى لديه مُضَيَّعٌ   وغيرُكَ مَنْ يسعَى اليه مُخيِّبُ
وواللهِ ما آتيكَ إلا محبَّةً   وإنّى فى أهلِ الفضيلةِ أرغبُ
فمالىَ ألقَى دونَ بابكَ جَفوةً   لغيرك تُعزَى لا إليك وتُنسَبُ
أُرَدُّ ردَّ الباب إن جئت زائراً   فياليتَ شعرى أين أهلٌ ومَرحَبُ
ولستُ بأوقاتِ الزِّيارةِ جاهلاً   ولا أنا ممن قُربُهُ يُتَجَنَّبُ
وقد ذكروا فى خادم المرء أنّه   بما كان من أخلاقه يتهذّب
فهلّا سرتْ منك اللطافةُ فيهمُ   وأعدتهمُ آدابُها فتأدّبوا
ويَصعُبُ عندى حالةٌ ما ألِفتُها   على أن بُعدِى عن جنابك أصعبُ
وأُمسِكُ نفسى عن لقائك كارهاً   أُغالِبُ فيك الشَّوقَ والشوقُ أغلبُ
وآنَفُ إمّا عِزّةً منك نِلتُها   وإمّا لإدلالٍ بـه أتعتَّبُ

* * *

أغار على حرف يكون مِن اسمها   اذا ما رأته العينُ فى خطِّ كاتبِ

* * *

فلكَمْ فىَّ من مكارمِ خُلقٍ   ولكَمْ فىَّ من حميدِ صِفاتِ
لستُ أرضَى سوى الوفاءِ لذى الودِّ   ولو كانَ فى وفائى وفاتِى

وألوفُ فلو أفارقُ بؤسًا لتوالت لفقده حسراتى
طاهر اللفظِ والشمائل والأخلاقِ عفُّ الضميرِ واللحظاتِ
ومع الصمتِ والوقار فإنّى دمِثُ الخُلْقِ طيّبُ الخلواتِ

* * *

ومِنْ خُلُقِي المشهورِ مذ كنتُ أننى
لغيرِ حبيبٍ قطُّ لن أتذللا
وقد عِشتُ دهرًا ماشكوتُ لحادثٍ
بلى! كنتُ أشكو الأغيدَ المتدللا
وما هُنْتُ إلا للصبابةِ والهوى
وما خِفتُ إلا سطوةَ الهجرِ والقِلَى
أروح وأخلاقى تذوبُ صبابةً
وأغدو وأعطافى تسيل تغزّلا
أُحِبُّ من الظبيِ الغريرِ تلفّتًا
وأهوى من الغصنِ النضيرِ تفتّلا
فما فاتنى حظّى من اللهوِ والصِّبا
وما فاتنى حظّى من المجدِ والعُلا

* * *

أيها الحاملُ همًّا إن هذا لا يدومُ
مثلَ ما تفنى المسرّاتُ كذا تفنى الهمومُ

* * *

حبذا نفحةُ ريحٍ فرّجتْ عنِّى غُمّه
ضربتْ ثوبَ فتاةٍ أكثرتْ تيهاً وحِشْمَة
فرأيتُ البطنَ والسـ ـرّةَ والخَصْرَ وثَمّه

* * *

أنا بالفراق مُرَوّع أبدًا ذا طالعى فيه وذا نجمى

* * *

أُحِبّ من الأشياءِ ما كان فائقاً وما الدونُ إلّا مَنْ يميلُ الى الدونِ
فأهجر شربَ الماءِ غيرَ مُصفَّقٍ زُلالٍ وأكلَ اللحمِ غيرَ سَمينِ
وإن قيل لى هذا رخيصٌ تركتُه ولا أرتَضِى إلا بكلِّ ثمينِ

* * *

خَلِّنى من تَصَنُّعٍ للوَرَى أو تَزَيُّنِ
فلعمرى يريبنى فرط هذا التسنن

وقال وقد سمع إنسانا يقدح فى رجل صالح من مشايخ الصوفية :

أيقدح فيمن شَرّف الله قدرَه وما زال مخصوصًا به طيّبُ الثَّنَا
لعمرُكَ ما أحسنتَ فيما فعلتَه وليس قبيحُ القولِ فى الناسِ هَيِّنًا
فيا قائلًا قولًا يسوء سماعُهُ بحقّكَ نَزِّهْنا عن الفحْشِ والخَنَا
نطقتَ فلم تُحسِنْ ولم تبقَ ساكتًا لقد فاتك الأمرُ الذى كان أحسنا

دَعِ القومَ إن القوم عنك بمَعْزِلٍ		وإنك عن هذا الحديث لفى غِنَى
رجالٌ لهم سِرٌّ مع الله خالصٌ		ولا أنتَ من ذاك القبيل ولا أنا
تكلفتَ أمرًا لم تكن من رجاله		لك الويلُ من هذا التَّكَلُّفِ والعنا
تميل الى الدنيا وتُبْدِى تَزَهُّدًا		ولا أنت معدودٌ هناك ولا هنا

وفى كتاب "النجوم الزاهرة" فى ترجمة البهاء زهير: «وبرع فى النظم والنثر والترسل، وله الشعر الرائق الفائق. وكان رئيسا فاضلا، حسن الأخلاق، ... ومن شعره:

ولما جفانى من أحب وخاننى		حفظت له الود الذى كان ضَيَّعا
ولو شئتُ قابلتُ الصدودَ بمثله		ولكننى أبقيتُ للصلح موضعا
وقد كان ما قد كان بينى وبينه		أكيدًا ولكنى رعيتُ ومارعى
سعى بيننا الواشى ففرق بيننا		لك الذنبُ يا من خاننى لا لمن سعى

وكتب عند موته بالديار المصرية، على يد ولده صلاح الدين، الى محمد بن الحكيم عماد الدين الديرينى، وهو آخر ما قاله:

ما قلتَ أنت ولا سمعتُ أنا		هذا حديثٌ لا يليقُ بنا
إنّ الكرام اذا صَحِبْتَهُمُ		ستروا القبيحَ وأظهروا الحَسَنا

(مطبعة دار الكتب المصرية ٨٧٢ / ١٩٣٠ / ٢٠٠٠)